

اعتراف
تولستوي
ترجمة
أنطونيوس بشير
دار سؤال
مكتبة
الفكر الجديد

اعتراف تولستوي

اعتراف تولستوي

ترجمة:

الأرشمندريت أنطونيوس بشير



الطبعة الأولى، 2015

دار سؤال للنشر
بيروت - لبنان
dar_souaal@outlook.com

ISBN: 978-614-8020-06-3

الإهـداء

إلى كلّ مَن يحبّ الحقّ، ويعرف الحقّ، ولا يخاف في سبيل الحقّ لومة لائم.

أ. ب.

كلمة المترجم

درسُ حياةِ العظماء خير الدروس التي تعود على صاحبها بعميم الفوائد، وخصوصاً إذا كانت حياة العظيم مكتوبة بقلمه. وفي رأي العارفين أن أفضل ما كتبه تولستوي، الفيلسوف الروسي الذائع الشهرة، في تاريخ حياته وفلسفة الحياة عموماً هو الفصول التي أطلق عليها اسم «اعترافي، ديانتي، إنجيلي». وقد رأيت أن أنقلها إلى العربية رغبة في اطلاع أبناء قومي على ما فيها من الحقائق الجميلة والدروس النافعة مبتدئاً بالكتاب الأول الذي سمّيته «اعتراف تولستوي» راجياً أن يقرأه الأدباء بما يستحقه من العناية.

كتب تولستوي اعترافه هذا سنة 1879 فلم تسمح السلطة بطبعه في روسيا ولذلك طبع في جنيف بسويسرا. ومثله الكتاب الثاني والثالث. وقد تُرجمت هذه الكتب إلى جميع اللغات الحية.

وإني منذ الآن ألفت أنظار القراء إلى حقيقة مهمة قبل قراءة هذا الاعتراف: وهي أن تولستوي يصف فيه أيام كفره المظلمة ليجعلها مقدمة لأيام إيمانه المنيرة التي سيطالعها القراء في «ديانة تولستوي» و«إنجيل تولستوي».

وهنالك حقيقة أخرى أود أن أقدمها للقارئ الأديب قبل اطلاعه على هذه الكتب وهي أن ترجمتي لمثل هذه المؤلفات لا تقيدني ولا بصورة من الصور بأفكار المؤلف وآرائه. فهو حر في معتقده وأنا حر في معتقدي ولكنني من المعجبين بأسلوبه الكتابي الخالد، فهو وإن كان بعيداً عن الرغبة في فصاحة الكلام، وهذا ظاهر من تكراره لكلمات كثيرة في الصفحة الواحدة بل وفي العبارة الواحدة كما يرى القارئ في هذا الاعتراف، فإن الفكر رائده والمنطق السديد رفيقه في جميع ما يكتب.

الأرشمندريت أنطونيوس بشير

أميركا الشمالية لسنة 1929

الفصل الأول

قد تنصّرتُ وقبلت تهذيبي الديني في الكنيسة الأرثوذكسية وتعلمت إيمانها في طفولتي وصبوتي وشبابي. بيد أنني لم أبلغ الثامنة عشرة من عمري حتى تركت الجامعة في السنة الثانية من دخولي إليها وحررت نفسي من كل ضروب العبادة والإيمان التي تعلمتها.

وإني بما لا أزال أذكره عن تلك الأيام أصرح أني بالحقيقة لم أكن في ما مضى من عمري راغباً في الإيمان بعقائد الكنيسة. ولكنني كنت أثق بالإيمان الذي يعتقد به الشيوخ من أنسبائي ولكن هذه الثقة نفسها لم تكن راسخة في ذهني.

أذكر مرة عندما كنت في الثانية عشرة من العمر أن ولداً زارنا وقضى معنا نهار الأحد يحدثنا بالاختراع الأخير الذي اهتدت إليه مدرسته. وخلاصة هذا الاختراع أن المدرسة وجدت بعد البحث أن اللّه غير موجود وأن كل التعاليم عن وجوده هي من مخترعات الناس (وكان هذا في سنة 1838). وقد أخذ هذا الخبر بمجامع قلوب إخوتي وأذنوا لي أن أنخرط معهم في البحث وهكذا قبلنا كلنا هذه النظرية الجذابة التي قد تكون حقيقة نافذة.

وأذكر أيضاً أن شقيقي الأكبر ديمتري الذي كان إذّاك طالباً في الجامعة عندما حملته طبيعته الحساسة على الاستسلام للإيمان والصلاة بحرارة قلب والذهاب إلى الكنيسة في كل صباح ومساء والتمسك بالصيامات والحياة الأدبية الفضلى في عقيدته كنا بأجمعنا نحن الصغار وكثير غيرنا من الكبار نسخر به حتى أننا أطلقنا عليه في آخر الأمر لقب السيد نوح.

وأذكر جيداً أن موسين بوشكين، ناظر جامعة كازان في ذلك الحين، دعانا إلى حفلة راقصة، وبذل جهده ليقنع أخي ديمتري، الذي رفض الدعوة بحجة أن الرقص مناف للآداب، والناظر يؤكد له أن داود الملك نفسه رقص أمام التابوت.

وقد عملت كل هذه الحوادث على قيادتي أخيراً إلى أن الواجب يقضي عليَّ أن أتعلم عقائد كنيستي، وأذهب إلى صلواتها ولكن الاهتمام الزائد بالعمل بها لم يكن ضرورياً في عقيدتي.

ومما أذكره أنني قرأت فولتير وأنا في فجر شبابي ولم أنفر من تهكّماته بل كنت أستلذ مطالعتها وأحبها.

وقد رافقني هذا النفور من الدين، كما يرافقني الآن، وكان له في حياتي نفوذاً فعالاً كما له في حياة جميع المولودين في المحيط نفسه الذي ولدت فيه والعائشين في بيئة كبيئتي. ويلوح لي أني أستطيع أن أعبّر عنه بما يأتي:

يعيش الناس في هذا العالم معيشة متساوية، وهم في الغالب لا يعملون بمبادئ الإيمان الذي يتعلمونه في المدارس بل بكل ما يعاكسه، فإن المعتقد لا تأثير له في الحياة ولا في علاقات الناس

بعضهم مع بعض، ولكنه كائن في دائرة منفصلة عن الحياة مستقلة عنها. وكلما تنازع المعتقد والحياة كانت السيادة للحياة، لأن قوة الأول لا تتعدى المظاهر الخارجية من كيانها.

فحياة الإنسان وأعماله كانت في ذلك الوقت كما هي اليوم قاصرة عن إظهار جوهر إيمانه ومعتقده. فإن كان ثمة من فرق بين الذي يسلّم بعقائد الكنيسة الأرثوذكسية والذي ينكرها فإن هذا الفرق في مصلحة الأول. وفي ذلك الوقت كما في وقتنا هذا نرى المتمسكين بحروف العقائد ومظاهرها يؤلفون الأكثرية الساحقة من البله والغليظي الطباع والمرائين والمتطوسين (المتخلقين بأخلاق الطاووس). أما الذكاء، والشرف، والصراحة، والإيناس والأدب فهي في الغالب بين غير المؤمنين أكثر مما هي بين المؤمنين.

يتعلم ابن المدرسة التعليم المسيحي ويرسل إلى الكنيسة وكل ما يطلب منه أنصار الطقس الظاهري في هذا العهد من حياته أن يظهر شهادة الكاهن بأنه اعترف وتناول الأسرار المقدسة. ولكن الرجل الذي يخرج من المدرسة ويقضى عليه بأن يكون بين الطبقات الممتازة التي لا عمل لها فإنه قلما يجد من يذكره بأنه يعيش بين المسيحيين وأنه عضو في الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية.

هذا هو حالنا اليوم كما كان من ذي قبل. فإن تأثير التعليم الديني الذي قبلناه في المدرسة عن طريق الثقة والإيمان البسيط، وحفظته السلطة المطلقة في حياتنا، يضمحل شيئاً فشيئاً تجاه المعرفة التي نستمدها من اختبارات الحياة اليومية التي تناقض كل

مبادئه، ومع أن الفرد منا يعتقد أن إيمانه لا يزال راسخاً في أعماق قلبه فإن هذا الإيمان لا أثر له في حياته العملية.

جاءني أخيراً رجل فاضل من معارفي وقص عليَّ كيف خسر إيمانه - قال ما خلاصته:

حدث فيما كان في الصيد منذ ست وعشرين سنة أنه ركع لكي يصلي قبل أن يذهب إلى فراشه، عملاً بعادة احتفظ بها منذ صباه، أما أخوه الأكبر الذي كان يرافقه في سياحته، فإنه جلس مقابله يتأمل في عمل أخيه. وعندما فرغ من صلاته قال له الأكبر:

«أف منك، ألا تزال محتفظاً بهذه العادة؟»

فلم يُجب بكلمة قط، ولكنه انقطع عن الصلاة من تلك الساعة، ولم يذهب إلى الكنيسة فيما بعد. وهكذا مرّت على هذه الحادثة عشرات السنين وهذا الرجل لا يصلي، ولا يعترف، ولا يتناول الأسرار المقدسة، ولا يذهب إلى الكنيسة - ولم يحمله على هذا تصديقه لمعتقدات أخيه، التي لم يكن يعرفها، -كلا. ولا لأنه بلغ إلى حقائق جديدة بدرسه وبحثه بل فعل ما فعل لأن كلمات أخيه جاءت كدفعة يد ضد حائط على أهبة السقوط. فقد برهنت له تلك الكلمات أن إيمانه كان طقساً فارغاً، ولذلك فإن كل كلمة ينطق بها في صلاته، وكل علامة صليب يرسمها، وكل سجدة يقوم بها، وكل حركة من حركاته الأخرى في الكنيسة لم يكن لها معنى قط. وعندما وثق بأن أعماله في هذا الموضوع لا معنى لها أقلع عنها.

على هذا المنوال سارت أكثرية الناس ولا تزال تسير حتى

اليوم وأنا أقول هذا عن أبناء طبقتي، أولئك الذين يهمّهم الإخلاص لحقيقة عقائدهم، وليس الذين يتخذون من الدين وسيلة للربح والوجاهة: مثل هؤلاء هم بالحقيقة غير مؤمنين لأنه إذا كان الإيمان وسيلة للربح المادي فهو عند التحقيق ليس بالإيمان الحقيقة البتة.

وأبناء طبقتنا هؤلاء يلخص مركزهم كما يأتي: - إن نور المعرفة والحياة قد أذاب قصور الإيمان المصنوعة من الشمع في أعماقهم فأدرك فريق منهم حقيقة الأمر وعمدوا إلى تنظيف أعماقهم من آثار هذه القصور المتهدمة. ولكن الفريق الآخر ظل متعامياً عن هذه الحقيقة فلم يشعر بها.

لذلك أعترف الآن بأن الإيمان المغروس في أعماقي منذ صبوتي قد زالت آثاره من قلبي كما تزول من قلب كل إنسان. ولكن الفرق بيني وبين الكثيرين هو أنني منذ الخامسة عشرة من عمري شرعت أقرأ كتب الفلاسفة، وأدركت في أعماقي عدم إيماني. فقد انقطعت عن الصلاة. وأنا في السادسة عشرة من العمر، وتحولت عن حضور الاحتفالات الكنسية، والمحافظة على صيامات الكنيسة بملء إرادتي وقناعتي. قد طرحت عني الإيمان الذي تعلمته في صباي وما برحت أؤمن بشيء، ولكنني لم أقدر أن أوضح ماهيته. قد آمنت بإله، أو بالأحرى لم أنكر وجود إله ولكن لم أقدر أن أوضح شيئاً عن هذا الإله الذي لم أنكر وجوده. إنني لم أنكر المسيح ولم أجحد تعاليمه، ولكن الحقيقة التي تدور عليها هذه التعاليم لم أعرف عنها شيئاً.

واليوم عندما أفكر في ذلك العهد أرى أن كل الإيمان الذي كان لي فكان له - بقطع النظر عن الغريزة الحيوانية المجردة - التأثير النافذ في حياتي كان ينحصر في عقيدتي بإمكانية البلوغ إلى الكمال الذي لم أكن أعرف شيئاً عن حقيقته أو نتائجه.

قد جرّبت الوصول إلى الكمال الفكري، ودرست كل ما بلغت إليه قوّتي من مواضيع الحياة، وجاهدت طويلاً لإنماء قوة إرادتي واضعاً لنفسي قواعد للعمل بها بدقة وصرامة، وبذلت قصاراي لتقوية جسدي بالرياضة المتنوعة التي تعمل على صلابة العضلات والاحتفاظ بالقوة البدنية، وعودت نفسي الصبر واحتمال المشقات والآلام الاختيارية، وكنت أنظر إلى جميع ذلك نظرتي إلى أعظم وسائل للبلوغ إلى الكمال المنشود.

وفي بداءة عملي كنت أعتقد أن الكمال الأدنى هو غايتي الرئيسية، ولكنني لم ألبث أن وجدت نفسي ساعياً وراء الكمال العام في جميع الأعمال. أو بعبارة أخرى إنني لم أرغب في الكمال أمام نفسي أو أمام اللّه، بل بالكمال أمام جميع الناس. ولكن هذا الشعور بمحبة الكمال في عيون جميع الناس لم يمضِ عليه ردح حتى تحوّل إلى رغبة في الحصول على قوة ليس للناس مثلها، والبلوغ إلى أقصى ما يكون من الشهرة والثروة والمجد.

الفصل الثاني

سيطالع القراء في فصل تالٍ خلاصة تاريخ حياتي، وحوادث صبوتي المؤلمة والممتلئة بالدروس والعجائب. وإنني أعتقد أن الذين مرّت بهم اختبارات حياتي كثيرون جداً في العالم. فقد رغبت من أعماق قلبي في أن أكون صالحاً. ولكنني كنت صغيراً، وكانت لي أهوائي الجامحة، وكنت وحيداً منفرداً في تفتيشي عن الصلاح فكنت كلما جرّبت أن أعبّر عن حنين قلبي إلى الحياة الأدبية أرى جيوش الاحتقار تحيط بي والسخرية ترافقني، في حين أنني كلما استسلمت لشياطين أهوائي يلازمني الإطراء والتشجيع من كل قوة في فكري.

ولذلك كانت أسمى مراتب الأخلاق الصالحة في عقيدتي منحصرة في الطموح، ومحبة القوة، والحصول على الربح، والكبرياء والغرور، والغضب والانتقام.

وهكذا صرت باستسلامي لأهواء نفسي مماثلاً لأبناء عشيرتي شاعراً برضاهم عن تصرفي. ومن أعجب ما أذكره عن تلك الأيام أنني كنت أعيش مع عمة لي، هي بالحقيقة امرأة فاضلة، ولكنها

طالما حدثتني بأن أعظم ما ترجوه لي في حياتي من المجد والفخار ينحصر في أن أراود امرأة متزوجة عن نفسها وأربح قلبها. ومن رغباتها الكثيرة لسعادتي أن أصير ملازماً عسكرياً، وإن أمكن ملازماً للإمبراطور. وأعظم من كل هذا: أن أتزوج يوماً من الأيام عروساً غنية تحمل لي ثروة بالغة من ألوف الدنانير وعشرات العبيد.

إنني لا أستطيع أن أتذكر حوادث تلك الأعوام السوداء من غير مرارة في قلبي وآلام في أعماق روحي.

قد قتلتُ الكثيرين في الحرب، وبارزت الكثيرين لأفقدهم حياتهم، وخسرت أموالاً كثيرة بالمقامرة، وأنفقت الأموال الكثيرة التي وصلت إليّ بأعراق الفلاحين، وكنت قاسياً عاتياً في معاملة خدامي، ولم أترك سبيلاً من سبل الفسق والدعارة مع العواهر إلا سلكته، ولم تفتني طريقة من طرق الخداع والمراوغة: كذب وسرقة، وزنا، وسكر وتمرد وقتل... كل هذا جزء من حياتي في تلك الأيام. فليس في قاموس الجرائم جريمة واحدة لم أرتكبها - ولكنني كنت مع كل ذلك مكرماً محترماً من أبناء عشيرتي كرجل أديب فاضل.

هكذا عشت مدة عشر سنوات.

وفي هذه المدة بدأت بالكتابة التي لم يحملني عليها سوى غروري ومحبتي للربح، والشهرة الكاذبة. وقد تبعت بكتابتي نفس الطريق التي اتخذتها لنفسي في رجولتي. ومن أجل رغبتي في الحصول على المال والشهرة، التي لأجلها اتخذت القلم حرفة لي، كنت أرى نفسي مضطراً أن أخفي الصالح وأظهر الشرير في

كل ما أكتبه. هكذا فعلت. وطالما قضيت الليالي أحارب أفكاري، لأخفي ما فيها من الطموح إلى الأكمل والأفضل، الذي كان بالحقيقة ضالة أحلامي الحقيقية. ولكن رغبتي في الشهرة كانت تقضي على كل صلاح في فكري. وعلى خداعي الكثير في كتابتي نجحت نجاحاً باهراً، وكان الناس يقرأون كتابتي مادحين شاكرين.

وعندما بلغت السادسة والعشرين من العمر ذهبت إلى بطرسبرغ في نهاية الحرب، وهنالك تعرفت بكبار المنشئين والكتّاب في تلك الأيام. فاستقبلني الجميع بالتأهيل والتعظيم.

وقبل أن أجد لنفسي فرصة لدرس المحيط الذي جئت إليه وجدت أن عادات الكتّاب وأطوارهم في تلك المدينة قد لزمتني، وصارت جزءاً من حياتي، وقضت قضاء مبرماً على كل آمالي وجهادي في سبيل الكمال في الحياة. ولم تعدم هذه الآراء والعادات الجديدة مبرراً في ذهني لأن فكري كان على أتم الاستعداد لكل جديد.

وكانت لرفقائي الكتّاب في ذلك العهد نظرية في الحياة خلاصتها: أن الحياة نشوء لا حد لتطوارته، وأن القوة الفعالة في أحداث هذه التطورات مستمدة منا نحن المنكرين، وأن أقدر المفكرين على القيام بهذا العمل هم الفنانون والشعراء. لذلك ينحصر واجبنا في الحياة كمفكرين فنانين وشعراء أن نعلم الناس، ونصبغ أفكارهم بصبغة أفكارنا.

ولكي أتجنب الجواب على السؤال الطبيعي الذي كان يواجهني في هذه الظروف وهو: «ماذا أعرف؟ وما الذي أقدر أن

أعمله للناس؟» كنت أضيف إلى النظرية المارّ ذكرها أنه ليس من الضروري أن أعرف هذا، لأن الفنان والشاعر يعلمان ما يصل إليهما بطريق الوحي من غير أن يشعرا به؟

وكان الناس ينظرون إليَّ نظرتهم إلى شاعر كبير وفنان عظيم. ولذلك اتخذت هذه النظرية لنفسي وآمنت بها. وأنا، الفنان والشاعر، كتبت وعلّمت ما لم تكن لي أقل معرفة به. ولكنني كنت أقبض أجرة عن عملي. فاقتنيت لنفسي المنازل الفخمة، وأنفقت الأموال الكثيرة على الولائم، والحفلات الاجتماعية، وكان لي نصيب وافر من الشهرة، وكنت أعتقد بحكم الطبع أن تعاليمي صالحة ومبادئي مستقيمة.

كان الإيمان بالشعر، وبنمو الحياة، إيماناً حقيقياً، وكنت كاهناً حقيقياً أبشر به. وكان القائم بمثل هذا العمل إذّاك رفيقاً للربح والكرامة في جميع أعماله. ولذلك بقيت عاملاً على نشره زمناً طويلاً ولم أشكّ في صحته.

ولكنني في العام الثاني، وخصوصاً في العام الثالث من هذه الحياة، بدأت أشك في عصمة هذه العقيدة، فعمدت أفحصها وأدرسها بأوفر دقة وفطنة. وأول ما دفعني إلى الشك أنني رأيت كهان هذه النظرية متخالفين فيما بينهم في فهمها والعمل بها. فكان فريق منهم يقولون:

«نحن أفضل المعلمين وأنفعهم. نحن نعلّم الناس ما هم في حاجة إليه، وكل المعلمين الآخرين في ضلال مبين».

وكانوا يتخاصمون ويتحاربون فيما بينهم، وكل منهم يبذل

قصاراه ليسيء إلى الآخر ويخدعه ويمكر به. وفوق هذا فإن الذين وقفوا على الحياد منا فلم يهمّهم الانحياز إلى أحد الفريقين المتناظرين، لم ينزهوا ذواتهم عن العار الذي انقاد رفقاؤهم إليه، بل عمدوا إلى الحصول على الربح الخصوصي باستثمار جهود رفقائهم المتخاصمين. كل هذا حملني على الشك في صحة العقيدة التي آمنت بها.

وقد دفعني هذا الشك في صحة إيماني الأدبي العلمي إلى درس حياة كهانه فرداً فرداً. فثبت لديّ بعد الدرس الطويل أن الأكثرية الساحقة بينهم رجال أردياء لا قيمة لأعمالهم، ولا صلاح في حياتهم وهم بالحقيقة في مستوى أكثر انحطاطاً من المستوى الذي عاش فيه رفقائي في العسكرية. ولكنهم واهمون في ذواتهم، واثقون بصلاحهم، ولا توجد مثل هذه الثقة إلا في القدّيسين الحقيقيين، أو في أولئك المرائين الذين لا يعرفون للقداسة من معنى.

حينئذ يئست من الإنسانية ومن نفسي، وأدركت أن ذلك الإيمان لم يكن إلا وهماً عقيماً. وأعجب ما في الأمر أنني، على إعراضي عن الإيمان بهذه النظرية الفاسدة، ورفضي الاجتماع بأصحابها وأتباعها، ما برحت أتمسك باللقب الذي منحني إياه كهنتها، وهو لقب شاعر وفنان ومعلم. فقد قادتني بساطتي، في ذلك العهد، إلى التصور أنني شاعر وفنان، وأني أستطيع أن أعلّم الناس من غير أن أعرف ما الذي أعلمهم إياه. ولكنني كنت أفعل كل هذا.

وقد ربحت من مصاحبتي لأولئك الرجال رذيلة جديدة، غروراً معجوناً بالكبرياء والعناد، وثقة بالنفس سدتها الجنون ولحمتها الاعتقاد بأني قادر أن أعلم الناس ما لا أعرفه ولا أشعر به. وعندما أفكر الآن في تلك الآيام وأتذكر حالتي الفكرية، وحالة المفكرين رفقائي، (الحالة التي لا تزال شاملة الألوف من أبناء الإنسان) أشفق على نفسي وأخاف منها وأحتقرها.

فقد كنا بأجمعنا مقتنعين بأن الواجب يقضي علينا أن نكتب ونتكلم ونطبع كتابتنا وكلامنا بسرعة فائقة، لأنه على هذا يتوقف عمران الوجود ونجاح الجنس البشري.

ولكن ألوفاً منا كتبوا، وطبعوا، وعلّموا، ولم يعملوا إلا على ضلال الناس وخداع أحدهم الآخر. لأننا لم ندرك أننا نحن أنفسنا لا نعرف شيئاً لأن أبسط مسائل الحياة - وهي مسألة ما هو الخير وما هو الشر - لم نعرف كيف نجاوب عليها. ولكننا كنا نجتمع، ونتكلم، ونخطب، من غير أن يصغي أحدنا إلى الآخر إلا لكي يطريه ويثني عليه واثقاً بأن مثل هذا الإطراء سيرجع إليه مضاعفاً، ثم لا نلبث أن يثور بعضنا على بعض، ويخاصم واحدنا الآخر، كأننا نمثل رواية كاملة كل أبطالها مجانين من الدرجة الأولى.

وكان الألوف من العمال يشتغلون ليلاً ونهاراً بصف الحروف ليطبعوا أقوالنا، وينشروها في جميع أنحاء روسيا، ونحن لا ننقطع هنيهة عن التعليم والكتابة، متذمرين أن الوقت أضيق من أن يكفي للقيام بأعمالنا، وأن الناس لا يصغون إلى أقوالنا الحكيمة.

حالة عجيبة غريبة لم أفهم حقيقتها في ذلك الحين، ولكنني

أدركها اليوم كما هي. فإن العامل الحقيقي الذي كان يوحي إلينا أفكارنا وأقوالنا في ذلك الوقت إنما هو الرغبة في الحصول على المال والمديح اللذين لم نعرف طريقة للحصول عليهما بغير تأليف الكتب والجرائد. وهكذا فعلنا. ولكي نزداد تمسكاً بالاعتقاد أننا ونحن نقوم بهذه الأعمال التافهة نؤلف أعظم طبقة في روسيا، رأينا أن نبرر ذواتنا بتعظيم العمل الذي نقوم به، ولذلك قررنا في اجتماع عام القرار الآتي:

«كل ما هو كائن فهو حق وصواب. وكل ما هو كائن إنما هو نتيجة للنشوء فالنشوء يصدر من المدنية. ومقياس المدنية هو انتشار الكتب والجرائد. نحن نقبض أجرتنا، وننال إكرام الشعب واعتباره لقاء الكتب والجرائد التي نؤلفها، ونحن لأجل هذا أنفع الناس وأفضلهم».

وربما كان هذا القرار نهائياً، لو أجمعت كلمتنا عليه. ولكن كل رأي من آرائنا كان يصادف في الحال رأياً آخر يناقضه، ولذلك كنا نتردد طويلاً في قبول أي اقتراح نسمعه. بيد أننا لم نعبأ للأمر، لأننا كنا نقبض أجورنا، وننال إطراء المجتمعين حوالينا. ولذلك كان يخيّل إلينا أننا في جانب الحق.

والحقيقة التي أراها واضحة أمام عيني وأنا أكتب هذه السطور أنه لم يكن ثمة أقل فرق بيننا وبين المجانين. ومع أنني كنت أفكر في هذا من ذي قبل، ولكنني كسائر المجانين كنت أعتقد أن جميع رفقائي مجانين وليس بينهم عاقل غيري.

الفصل الثالث

وقد عشت في هذه الحالة الجنونية ست سنوات أخرى إلى وقت زواجي. وفي هذه الأثناء سافرت إلى أوروبا. وكانت حياتي في أوروبا، وتعرّفي بعظماء مفكريها وعلمائها، عاملاً فعالاً على تأييد عقيدتي بإمكانية الوصول إلى الكمال العام الذي كان المفكرون في أوروبا يؤمنون به. وهو إلى اليوم يشغل أذهان المفكرين في جميع أنحاء العالم وهم يعبّرون عنه بكلمة التقدم. وقد اعتقدت في ذلك الوقت أن هذه الكلمة ذات معنى حقيقي بذاتها. لأنني لم أكن بعدُ فاهماً أنني عندما أرى نفسي معذباً، كجميع الناس، من السؤال «كيف أقدر أن أعيش أفضل مما أنا عائش؟» فأجيب بأنه يجب أن أعيش لأجل التقدم العام، إنما أردد جواب الرجل الذي كان يسير في قارب تحمله أمواج البحر ورياحه، ولا يرى أمامه سوى السؤال الواحد: «إلى أية جهة يجب أن ندير الدفة؟» فيجيب على الفور قائلاً: «إننا مسيرون إلى جهة ما».

إنني لم أرَ هذه الحقيقة في تلك الأيام. ولكن عواطفي دون

أفكاري كانت تثور في ظروف نادرة على خرافات ذلك العصر وأوهامه التي تقود الناس إلى تجاهل جهلهم المذيب لحقيقة الحياة.

وفي أثناء إقامتي في باريس أظهر لي منظر إعدام أحد المجرمين ضعف اعتقادي الوهمي بالتقدم. لأنني عندما رأيت رأس الرجل يطير عن جثته، وسمعت الصوت الذي أحدثه سقوط رأسه وجثته في الصندوق المعد لهما، أدركت بكلية كياني، وليس بفكري فقط، أنه ما من نظرية بحكمة جميع النظم الموضوعة، والعقائد المقررة القائلة بالتقدم والارتقاء، تستطيع أن تبرر هذا العمل الفظيع وأدركت أيضاً في أعماق قلبي أنه، ولو أجمعت كلمة كل أبناء الإنسان منذ الخليقة إلى الآن أن مثل هذا العمل ضروري للتقدم فإني أعرف كل المعرفة، أنه غير ضروري، وأنه عمل رديء بذاته ولذلك يجب عليّ أن أحكم على ما هو حق وضروري، ليس بما قاله الناس وفعلوه، ولا بما رتبوه من النظم للتقدم، بل بما أشعر بصوابه في أعماق قلبي.

وهنالك حادثة أخرى أظهرت لي نقصان الرأي القائل بضرورة اتخاذ عقيدة التقدم الوهمية هذه نظاماً للحياة. أما الحادثة فهي موت أخي. فقد مرض وهو في مقتبل العمر، واحتمل آلام مرضه المريرة عاماً كاملاً، ومات متألماً متوجعاً. فقد كان رجلاً مقتدراً بالقول والعمل، وكان ذا قلب رقيق، هادئاً، رصيناً، ولكنه مات، من غير أن يعلم لماذا عاش في هذا العالم، جاهلاً حقيقة الموت كل الجهل. ولم تقدر نظرية أو عقيدة في الوجود أن

تجاوب على هذه المسائل جواباً يقنعه، أو يقنعني، سحابة مرضه وأوجاعه.

على أن هذه الحوادث، التي عملت على اضطراب إيماني بالتقدم كانت قليلة جداً، وبعيدة بعضها عن بعض. ولذلك كنت أواظب على معتقدي بالكمال وإيماني بالتقدم. وكانت تعزيتي الوحيدة بهذه العبارة التي ألفتها لنفسي: «كل شيء ينمو ويتغير. وأنا نفسي أنمو وأتغير كل يوم. وسيأتي يوم يدرك فيه الجميع سر هذا النماء».

وعند رجوعي من أوروبا هجرت المدن وأقمت في الريف، وعمدت إلى إنشاء المدارس في القرى والمزارع لتعليم الفلاحين. وقد كان هذا العمل عزيزاً لدي جداً، لبعده عن الادعاء الفارغ، الذي يرافق وظيفة المعلم الأدبي الكبير الذي يشتغل بالتأليف والكتابة.

وفي هذه الحالة كنت أشتغل ثانية باسم التقدم، ولكنني في هذه المرة كنت أنظر بروح الفاحص الناقد إلى الأسس التي يقوم عليها صرح التقدم. فقلت لنفسي، إن التقدم يجب أن ترافقه الحرية والعقل، ولذلك يجب أن يعطى أبناء الريف وأولاد الفلاحين ملء الحرية باختيار الطريق الصحيح التي تلائمهم للبلوغ إلى التقدم الذي يحتاجون إليه. وإنني أصارح القارئ القول إنني كنت لا أزال أعالج حل القضية التي لا حل لها: «كيف أعلم من غير أن أعرف ما يجب أن أعلمه؟» فقد أدركت، في أرقى مراتب الأعمال الأدبية، أن مثل هذا العمل مستحيل، لأنني رأيت أن كلاً

من المعلمين يختلف عن الآخر بطريقة تعليمه، وبما يعلمه، ولذلك يخاصمه، وينازعه ويجاهد عبثاً ليخفي عنه جهالته وغروره. ولكنني، وقد انحصرت أعمالي بأولاد الفلاحين، رأيت أنني قادر أن أتغلب على هذه العقبة، بإطلاق حرية الأولاد ليتعلموا الموضوع الذي يحبونه وأكاد أخجل من نفسي عندما أتذكر الطرائق العديدة التي لجأت إليها لتعليم الناس، وأنا أعرف في نفسي أنني لا أستطيع أن أعلم شيئاً نافعاً، لأنني أنا نفسي لم أكن أعرف ما هو الضروري للناس.

وبعد أن قضيت عاماً كاملاً في تنظيم مدارس الفلاحين رجعت إلى أوروبا ثانية لكي أتعلم كيف أقدر أن أعلم من غير أن أعرف شيئاً.

وقد ثبت لدي بعد الدرس والفحص أنني قد وجدت الحل الأخير للقضية فتسلحت بمعلوماتي الحكيمة الجديدة، ورجعت إلى روسيا في نفس السنة التي نال فيها الفلاحون حريتهم من العبودية، فعُيِّنتُ فيها قاضياً، وعمدت إلى تعليم غير المتعلمين، بواسطة المدارس والمتعلمين، بواسطة أعمدة الجريدة التي شرعت في إصدرها، وقد سارت أعمالي على أتم ما يرام من النجاح، ولكنني شعرت أن عقلي لم يكن في حالة طبيعية، ولذلك أدركت أن تغييراً فجائياً سيطرأ عليّ. وإني أرجح أن اليأس الذي أصابني، بعد ذلك بخمس عشرة سنة، كان يمكن أن يصيبني إذّاك لو لم يقم في سبيله حادث عظيم في حياتي جعلني في مأمن منه، وهو حادث زواجي.

وقد مر العام الأول وأنا أشتغل في كل دقيقة من يومي بالتحكيم، والتعليم في المدارس، وتحرير جريدتي، حتى شعرت أنني أكاد أرزح تحت أثقال الواجبات الكثيرة التي ألقيت على كاهلي. وظل الحال هكذا حتى صرت أنظر إلى كل أعمالي في القضاء، والمدرسة، والجريدة، نظرتي إلى ألد أعدائي. فوقعت أخيراً في مرض عقلي، أكثر مما هو جسدي، وتركت أعمالي، وسرت إلى البرية، حيث أصبحت وحيداً أتنشق نسيم الطبيعة النقي، وأعيش بين الحيوانات البريئة المعيشة الطبيعية الحق.

وعند رجوعي تزوجت. فقادتني السعادة التي وجدتها في حياتي الزوجية إلى الهرب من السعي وراء إدراك معنى الحياة العام فحصرت أفكاري وجهودي في عيلتي - في زوجتي، وأولادي، وفي الاهتمام بتوفير وسائل الراحة لهم ولي. فالجهاد للبلوغ إلى الكمال الشخصي، الذي عقبه العمل على تأييد التقدم العام تحوّل أخيراً إلى السعي وراء سعادة عيلتي الصغيرة.

على هذه الصورة عشت مع أهل بيتي خمس عشرة سنة.

ومع أني في أثناء هذه الخمس عشرة سنة كنت أنظر إلى صناعة الإنشاء والتأليف نظرة احتقار، فقد واظبت كل المدة على الكتابة والتأليف. فقد خبرت بنفسي ما في هذه الصناعة من الترغيب والتشويق، وما تقدمه للمنخرطين بها من المكافأة المالية على ما يكتبونه ويألفونه، إذا نال رضى العامة، وأقبلت الجماهير على مطالعته، ولذلك عمدت إلى الكتابة، لمجرد الرغبة في تحسين حالتي المادية مغمضاً عيني عن البحث عن حقيقة حياتي أو

الغاية من الحياة كلها. وكنت أعلم في جميع كتاباتي الحقيقة الواحدة، التي اعتقدت بها إذّاك، أن غاية الحياة يجب أن تنحصر في الحصول على سعادتنا وسعادة عائلاتنا لا أكثر ولا أقل.

هكذا عشت - ولكنني منذ خمس سنوات[1] شعرت بتطور غريب في حياتي، فكنت أرى نفسي في حيرة، لا أدري كيف أتخلص منها، لا أعرف كيف أقدر أن أعيش، ولا ماذا أعمل في حياتي، فبتّ مضطرب البال، تتقاذفني أمواج اليأس، وتسير بي رياح التردد حيث شاءت. ولكني تغلبت على كل هذا ورجعت حياتي إلى مجاريها الأولى. غير أن الشقاء كتب لي في ذلك الوقت فعاودتني حيرتي في الوجود، فبتّ أنشد راحتي، ولا أجد أمام عيني سوى شبح قاتم يردد عليّ بصوته الراعب قائلاً: «لماذا تعيش؟ وما هي الغاية من حياتك؟»

وقد خطر لي أولاً أن هذه المسائل لا معنى لها، ولا غاية منها وأن الجواب عليها بسيط أهتدي إليه بملء السهولة متى أردت. ولكن عجزي عن البلوغ إلى الجواب في ذلك الوقت كان ناشئاً عن اشتغالي بمواضيع أخرى، وأني سأهتدي إلى الجواب متى أفردت له متسعاً من وقتي. ولكن هذه المسائل ما برحت تزدحم أمام عيني طالبة جواباً، من غير أن تفسح لي وقتاً لأدرسها، وهي تتجمع في كل لحظة بعضها وراء بعض، كما تتجمع النقط الصغيرة ليتألف من مجموعها بقعة سوداء كبيرة.

وقد أصابني نفس ما يصيب كل مريض في بداءة مرضه،

---

(1) كتب تولستوي هذا الاعتراف سنة 1883.

تعرض له بعض الأيام البسيطة، فلا يعبأ لها، وهي لا تلبث أن تزيد وتتجمع حتى يتألف من مجموعها داء عياء، يقضي على راحته ويسلبه سعادته، فيعمد المريض المسكين إلى ملافاة الخطر، ولكنه يرى نفسه قاصراً أمام عدوه، ويدرك أن المسألة، التي بدت له لأول وهلة تافهة لا أهمية لها، قد أصبحت قضية في الوجود يسعى إلى حلها، ولا يهتدي إلى ما ينقذه منها، وهي قضية موته.

هذا نفس ما حدث لي. فقد أدركت أخيراً أن ما يواجهني من الاضطراب ليس بالأمر البسيط الذي لا يؤبه له، بل هو داء عضال يجب أن أحاربه قبل أن يتأصل في كياني ويستحيل عليّ استئصاله. ومع أن المسائل التي كانت تعرض أمامي، ظهرت لي في أول الأمر بسيطة، أشبه بأسئلة الصبيان الصغار منها بالأسئلة التي يجب على الحكيم أن يعيرها اهتمامه، فإنني رأيت في كل مرة جربت أن أجيب عليها، أنها ليست أسئلة صبيان بسيطة، بل هي بالحقيقة شاملة لأعمق أسرار الحياة البشرية. وإنني عاجز بكل ما لديّ من المعرفة أن أقدم جواباً واحداً.

لذلك كنت، قبل الاهتمام بأملاكي، أو تهذيب ابني، أو كتابة كتبي، أرى نفسي مضطراً إلى معرفة السبب الذي يحملني على كل هذه الأعمال. فإذا كنت لا أعرف السبب الذي يدعوني إلى كل هذا، فإني لا أقدر أن أقوم بعمل مثله، ولا أقدر أن أعيش في الوجود. وفيما أنا أفكر في تدبير بيتي وأملاكي، التي كان لها المقام الأول في فكري، في ذلك الحين، خطر لي فجأة السؤال التالي:

«حسن وجميل أن يكون لي في حكومة سمرا ستة آلاف فدان أرض، وثلاثماية حصان و. . . ولكن ما الفائدة من كل هذا؟»

ولكنني لم أعلم كيف أجيب، ولا بماذا أفكر. وحدث في مرة أخرى، فيما أنا أرسم خطة لتعليم أولادي، أنني سألت نفسي قائلاً: «ولماذا؟» وبعد أن فكرت هنيهة في خير الوسائل العائدة لفائدة الإنسانية وتقدمها صرخت على الفور قائلاً: «وماذا يعنيني من موضوع كهذا؟»

وعندما فكرت في الشهرة التي حصلت عليها بواسطة مؤلفاتي وأعمالي قلت في نفسي:

«حسن وجميل. ولكن ما الفائدة إذا صرت أشهر من غوغول وبوشكين وشكسبير وموليير، وجميع كتّاب العالم؟ كل هذا جميل ولكن ماذا بعده؟ . . .»

إنني لم أجد جواباً. ولكن مثل هذه الأسئلة لا تطيق الانتظار. فهي تطلب الجواب في الحال. والمرء بدون الجواب عليها لا يقدر أن يحيا ولكن أين الجواب؟ لم أدرِ.

فكنت أشعر أن الأرض التي أقف عليها ترتجف تحت قدمي وتسير إلى العدم، وأنه لا يوجد شيء أستطيع أن أضع عليه قدمي لأظل واقفاً في الوجود، وأن ما عشت لأجله حتى تلك الساعة إنما هو لا شيء، ولذلك لم يبق لي عذر للحياة، فيجب أن أموت.

الفصل الرابع

في ذلك الوقت شعرت أن حياتي قد وقفت عن سيرها. كنت قادراً أن أتنفس، وأن آكل، وأشرب، وأنام، ولكنني لم أكن مخيراً في تنفسي، وأكلي، وشربي، ونومي. لأن الروح التي كانت تنعش حياتي فارقتني، ولم يبق لي مطمع في الحياة أرى في تحقيقه والسعي وراءه لذة ومبرراً تجاه فكري. فكنت كلما رغبت في شيء، أعرف قبل أن أنشده، أن بلوغي إليه وعدمه سيان في نظري. ولو أن جنية جاءتني في ذلك العهد بكل ما أريد، لما عرفت ما أقوله لها. وإن كان قد خطر لي، في ذاك العهد، في وقت ثوارن عواطفي، بعض المشتهيات، أو بالحري أشباه المشتهيات القديمة، فإن كل هذا كان يزول كأنه لم يكن في حالة هدوئي واعتدال عواطفي، لأني كنت أرى أنه ليس بالحقيقة سوى وهم بسيط لا حقيقة دونه ولم أقدر إذّاك أن أرغب في إدراك الحقيقة لأن غروري كان يصوّرها لي كما هي.

فكانت الحقيقة في عقيدتي أن الحياة لا معنى لها. فكل يوم من أيام حياتي، وكل خطوة من خطواتي في الحياة، كانت تقربني

من الهوة الكبرى: حيث كنت أرى بملء الوضوح أنه ليس أمامي سوى الخراب والدمار. وكان وقوفي عن المسير مستحيلاً، كما أن الرجوع إلى الوراء كان مستحيلاً أيضاً. وأهم من هذا أنه كان يستحيل عليَّ أن أغمض عيني فلا أرى أنه لا يوجد شيء أمامي سوى الشقاء، والألم، والموت الأكيد والعدم.

وهكذا، أنا الرجل السعيد، الصحيح العقل والجسم، صرت أشعر في أعماقي أن الحياة مستحيلة عليّ، لأن قوة جبارة كانت تقودني إلى الهرب من الحياة. وأنا لا أعني بهذا أنني رغبت في قتل نفسي.

إن القوة التي أبعدتني عن الحياة كانت أقدر، وأكمل، وأعم من أية رغبة في الوجود. فقد كان لها نفس القدرة، التي كانت للقوة الأولى التي قربتني من الحياة ولذاتها، ولكنها كانت تسير في جهة معاكسة للجهة التي صارت فيها تلك القوة الأولى. وقد بذلت كل جهدي للهرب من الحياة.

وكانت فكرة الانتحار تخطر لي في كل يوم، بل كل ساعة كما كانت فكرة الجهاد في سبيل كمال الحياة، رفيقة لأحلام شبابي. وقد لزمني هذا الفكر، وكان يبدو لي جميلاً جذاباً، بهذا المقدار حتى اضطررت أخيراً أن ألجأ إلى وسائل عديدة للحؤول دون تنفيذه بسرعة ولم يحملني على التردد في الانتحار سوى رغبتي في استعمال كل قوى حياتي في تنظيف أفكاري من أقذار الأوهام العالقة بها ولو لم يتم لي هذا لكنت أقتل نفسي في الحال. وما كان أشبه حياتي في ذلك الوقت بحياة رجل سعيد يخفي حبلاً

غليظاً من أمام عينيه لكي يتخلص من التجربة التي كان يقدمها له هذا الحبل ليشنق نفسه في غرفة نومه. ولذلك انقطعت عن الذهاب إلى الصيد، خوفاً من أن تقودني البندقية التي أحملها إلى التخلص من حياتي. إنني لم أعرف ما الذي كنت أتوق إليه. فقد كنت أخاف من الحياة، ولذلك جاهدت للتخلص منها. ولكن مع كل هذا كان في أعماقي حنين إلى شيء لم أعرفه فيها.

هذه هي الحالة التي قدر لي أن أصير إليها في وقت كانت فيه كل ظروف حياتي سعيدة جداً، ولم أكن قد بلغت الخمسين من عمري بعد فقد كان لي زوجة صالحة تحبني وأحبها، وأولاد مهذبون، وأملاك واسعة كانت تنمو وتزداد من غير أن أتعب في سبيلها. وكنت موضع احترام وإكرام من جميع أصدقائي ومعارفي. فكان الغرباء عني يطرونني وصار لي من الشهرة الواسعة ما لم أحلم بأكثر منه. وفوق كل هذا، فإني لم أكن مجنوناً، ولم يكن في دماغي أقل ضعف. بل كنت على العكس من هذا ممتَّعاً بتمام الصحة عقلاً وجسداً مما لم يكن أقل من مثله لأقراني. فكنت أجاري أقوى الحصادين في عمله، وأجلس إلى مكتبي ثماني ساعات وعشر ساعات دفعة واحدة من غير أن أشعر بأقل تعب أو ضرر. ولكنني مع كل هذا وصلت إلى هذه الحالة: إنني أكره الحياة ولا أريد أن أعيش. ولكن خوفي من الموت كان يضطرني إلى استنباط الحيلة ضد نفسي لكي لا أضع حداً لحياتي.

ويلوح لي أني أستطيع التعبير عن حالتي الفكرية في ذلك الوقت بما يأتي: كانت حياتي أضحوكة جنونية خبيثة موجهة

إليّ من شخص لا أعرفه، ومع أنني لم أكن أعترف بوجود هذا الشخص الذي يقولون إنه خلقني، فإن هذه النتيجة القائلة بأن هذا الشخص قد ضحك عليّ بجنون وسخرية، عندما خلقني في هذا العالم، كانت تظهر كأنها أصدق ما في الحياة من النتائج الطبيعية.

ولم أكن أقدر أن أتخلص من التفكير في أن في الوجود كائناً يتنعم على حسابي ويسخر بي وهو يراقب أعمالي، لأنني بعد أن جزت الربعين، وكدت أبلغ الخمسين من العمر الذي قضيته بالدرس والنمو الفكري والجسدي، وبعد أن بلغت كمال رشدي، ووصلت إلى قنة إدراك الحياة، أرى نفسي واقفاً على رأس جبل المعرفة البشرية فاهماً بملء الوضوح أنه ليس في الحياة شيء نعيش لأجله وأنه لم يوجد فيها شيء في المستقبل. ولذلك كنت أعتقد أن الذي أوجد هذه الحياة لم يقصد منه سوى السخرية والهزء بأبنائها.

ولكن وجود هذا الكائن الأعلى أو عدم وجوده لم يساعدني قط. لأنني في جميع أعمال حياتي لم أقدر أن أرى عملاً واحداً ينطبق على العقل. وأعظم ما كان يعمل على دهشتي أنني لم أدرك هذه الحقيقة في بداءة حياتي. فقد كانت كل هذه الحقائق أمام سحابة عمري، وكنت أعرف أن المرض والموت قادمان على الجميع، إن لم يكن اليوم فغداً، وأني وجميع أصحابي صائرون إلى لا شيء، ولا يبقى بعدنا سوى النتانة والدود. فكل أعمالي مهما عظمت سائرة إلى النسيان، إن لم يكن عاجلاً فآجلاً أما أنا

نفسي فلن يكون لوجودي أثر فيما بعد. فلماذا يهتم الإنسان بما في الحياة والحالة هذه؟ كيف يقدر الناس أن يتعاموا عن رؤية كل هذا ويعيشوا؟ إن هذا بالحقيقة لأمر عجيب غريب! فالمعيشة ممكنة إذا كان في الحياة ما يستهوي صاحبها ويسكره. ولكنه لا يلبث أن يصحو من سكرته فيدرك أن كل هذا وهم كاذب شرير. فليس في الحياة إذن شيء يضحك صاحبها أو يسليه، لأن كل ما فيها موجع ورديء.

جاء في إحدى القصص الشرقية القديمة أن رجلاً كان يطارده وحش شرس بري، ، فلجأ الرجل إلى بئر لا ماء فيها لينقذ نفسه من شر الوحش. ولكنه لسوء حظه لم يدخل البئر حتى رأى في قعرها تنيناً فاغراً فمه ليبتلعه. فأخذ الرعب بمجامع قلب الرجل المسكين ولكنه لم يجرؤ على الخروج من البئر خوفاً من الوحش، ولا على النزول إلى قعر البئر خوفاً من التنين. ولذلك عمد إلى غصن إلى شجرة صغيرة كانت نابتة في شق من شقوق البئر. ولكن التعب أخذ من ذراعيه مأخذه فأدرك أنه هالك لا محالة، لأن الموت كان ينتظره في الأمرين جميعاً. ولكنه ظل متعلقاً بالغصن. وفيما هو ينظر إلى جذع الشجرة التي كان متعلقاً بها رأى جرذين: الواحد أبيض والثاني أسود يدوران حول جذع الشجرة، وهما يقرضانه بهمة ونشاط. رأى المسافر كل هذا وأدرك أن الشجرة ستسقط قريباً فيقع هو في فم التنين الذي كان يترقبه بفارغ الصبر. ولكنه نظر في الوقت نفسه بضع نقط من العسل على أوراق الشجرة فمد لسانه وشرع يلحسها متناسياً شقاءه كله.

هكذا أتعلق أنا بغصن شجرة الحياة، عارفاً أن تنين الموت ينتظرني، وهو على أتم الاستعداد ليمزقني إرباً إرباً. ولا أدري لماذا قدر لي أن أحتمل كل هذه المشقات. وأنا أيضاً، كذلك المسافر، كنت أسعى لامتصاص العسل الذي عرض لا في طريقي الماضية، ولكن هذا العسل لا يلذّ لي اليوم، في حين أن الجرذين الأبيض والأسود، وهما الليل والنهار، يعملان بغير انقطاع في قرض الغصن الذي أتمسك به. إنني أرى التنين بوضوح، والعسل لم تبق له حلاوة في عقيدتي، إنني أرى التنين الذي لا مهرب منه، وأنظر الجرذين الكبيرين، ولا أستطيع أن أحول عنهما نظري. وأعظم من كلّ ذلك أن هذه ليست بالقصة الخرافية، بل هي حقيقة ناصعة لا ينكرها أحد من الناس.

أجل، إن الوهم القديم في سعادة الحياة، الوهم الذي حجب عني منظر التنين الهائل، لا يستطيع أن يخدعني فيما بعد. ومهما بالغت في التفكير في نفسي لأقنع ذاتي أنني لا أستطيع أن أدرك معنى الحياة، وأنني يجب أن أعيش من دون تفكير، فإنني عاجز عن العمل بهذه النصيحة، لأنني قد عشت متمرداً عليها زمناً طويلاً. فأنا لا أقدر أن أغمض عيني عن رؤية الأيام والليالي تقربني من هاوية الموت بسيرها السريع الذي لا سلطة لي على إيقافه. إنني لا أستطيع أن أرى غير هذا، لأنه هو الحقيقة الواحدة في الوجود وكل ما سواه كذب وتضليل. أما نقطتا العسل اللتان حجبتا عن عيني منظر هذه الحقيقة الراعبة أكثر من أية قوة غيرهما في الحياة وهما محبتي لعيلتي ومحبتي للكتابة التي أطلقت عليها

اسم الفن، فلم تبق لها سلطة على قلبي، لأن حلاوتها قد تحولت إلى مرارة وعلقم.

ولذلك كنت أقول في نفسي: «عيلتي؟» إن العيلة، الزوجة والأولاد، هم أيضاً مخلوقات بشرية معرضون لنفس الشقاء الذي أنا معرض له. فهم، إما عائشون في الكذب والخداع أمام نفوسهم، أو أنهم يجب أن يبصروا الحقيقة الراعبة. فلماذا يعيشون في الوجود؟ لماذا أحبهم وأعتني بهم وأربيهم وأهذبهم وأُعنى بأمورهم؟ ألكي أقودهم إلى اليأس الذي يملأ حياتي؟ أو لأجعل منهم جنوداً جديدة في جيش الحمقى؟ فأنا، بما في قلبي من المحبة لهم، لا أقدر أن أخفي عنهم الحقيقة، لأن كل خطوة يخطونها في طريق المعرفة تدنيهم من هذه الحقيقة الواحدة التي هي: «الموت!»

«والفن والشعر؟»...

إن ما أصبته من النجاح في الكتابة، وما أحرزته من الثناء والإطراء، كان يحملني، في ما مضى من عمري، على إقناع نفسي بأن مثل هذا العمل يجب أن أواصل القيام به على رغم معرفتي بدنو الموت الذي يذهب بكل شيء، بكتابتي وبكل ما تحمله من التذكارات. ولكن لم يطل بي الوقت حتى أدركت أن هذا وهم آخر من أوهام الحياة، ورأيت بوضوح، أن الفن زينة الحياة وسحرها. والحياة بعد أن خسر سحرها نفوذه في قلبي، كيف أستطيع أن أجعل غيري يرى هذا الساحر فيها؟ عندما كنت بعيداً عن حياتي الحقيقية، تحملني مظاهر الحياة الخارجية حيث شاءت

وطاب لها الهوى، فتقنعني أن الحياة ذات معنى سام لا يمكن لأحد أن يبعد عنه، كانت مظاهر الحياة التي تتجدد في الفن والشعر تلذ لي وتهبط الوحي على فكري ولذلك كنت أفرح أن أنظر إلى الحياة بمرآة الفن. ولكنني عندما جربت أن أدرك معنى الحياة، وشعرت بضرورة الحياة لنفسي، صارت هذه المرآة سخرية وهزءاً ملؤها الألم والحزن. ولذلك فارقتني الطمأنينة التي كنت أجدها في مرآة الفن وصرت أرى أن كتابتي بلادة ومجلبة لزيادة في يأسي.

عندما كنت أؤمن في أعماق نفسي بأن حياتي لها معنى بذاتها كان إيماني يعمل على مسرتي وكمال فرحي. ولذلك كان كل ما في الحياة من منير ومظلم، من مضحك وفاجع، من جميل مبهج وبشع مخيف، يسليني ويعزيني. ولكنني عندما عرفت أن الحياة فاجعة راعبة لا معنى لها خسرت كل لذتى الماضية التي كنت أبصر نورها في مرآة الفنون الجميلة. وكل ما في العالم مما يسمّيه الناس حلاوة صار علقماً في فمي، وأنا أنظر إلى التنين الفاغر فاه تحتي، والجرذين الدائبين في قضم الغصن الذي يحملني.

ولم يقتصر الأمر على هذا فقط. لأنني لو عرفت أن الحياة لا معنى لها واقتصرت القضية عند هذا الحد فقط، لكنت قبلت كل هذا، وأدركت أنه قسمتي المعينة من الحياة. ولكنني لم أقدر أن أقف عند هذا الحد. لأنني لو كنت كرجل يعيش في غابة وهو يعرف أنه لا وجود غير غابته لكان حمل الحياة خفيفاً على كتفي. ولكنني كنت، كرجل ضال في غابة فسيحة الأرجاء، وهو مع

خوفه من مجرد التفكير في ضلاله يسعى إلى طريق تنقذه من ضلاله، ومع أنه يعرف أن كل خطوة يخطوها من مكانه تزيده ضلالاً، فهو يرى نفسه مرغماً على السير بأقصى ما يكون من السرعة.

هذا هو شقائي الأكبر في ذلك العهد المظلم. ولكي أتخلص منه كنت في كل هنيهة على أتم الاستعداد للانتحار.

الفصل الخامس

في مثل هذه الحال سألت نفسي قائلاً: «أليس من الممكن أني قد أعرضت عن شيء، أنني فشلت أن أدرك شيئاً هاماً في الحياة؟ أم أليس من الممكن أن هذه الحالة التي تدعو إلى اليأس هي حالة عامة بين جميع الناس؟»

ولذلك عمدت إلى جميع فروع المعرفة البشرية أنشد إيضاحاً للمسائل الخطيرة التي كانت تعذبني. فكنت أفتش عن هذا الإيضاح بمرارة قلب، وصبر طويل، لأني لم أقدم على علمي بدافع التطفل والرغبة في قتل الوقت بما لا طائل تحته، بل سعيت إليه بهمة ونشاط ليلاً ونهاراً، واثقاً بأن فيه خلاصي من آلامي النفسية وأوجاعي الروحية. نشدته كما ينشد اليائس من النجاة نجاته، وكما تنشد الصحراء وابل المطر ولكنني لم أجد شيئاً.

نشدته في جميع جداول المعرفة. ولم يقتصر الأمر على فشلي في عملي فقط، بل وثقت كل الثقة بأن جميع الذين نشدوه قبلي لم يجدوا شيئاً مثلي، وبلغوا أخيراً كما بلغت أنا إلى الحقيقة الواحدة الممتلئة يأساً: وهي أن الحياة لا معنى لها.

فقد فتشت في جميع الجهات وإني أشكر الحياة التي قضيتها بالدرس فوفرت لي الوسائل للتعرف بعلماء العالم وعظماء المفكرين في جميع فروع المعرفة، الذين لم يضنوا عليّ بشيء مما في مكاتبهم وفي رؤوسهم لإزالة حيرتي. ولكنني لم أزدد إلا حيرة. لأن كل ما في العلم من الجواب على السؤال: «ما هي الحياة؟» عرفته من زمن بعيد.

أجل قد عرفت هذا منذ عهد بعيد، قبل أن أدركت أن المعرفة البشرية قاصرة عن الجواب على هذا السؤال. فقد طالما خيل إليّ وأنا أتأمل في تصريح العلم برزانة ودقة أن المادة لا علاقة لها بقضايا الحياة، طالما خيل إليّ أنني قد ضللت عن نقطة هامة في الموضوع. ولذلك كنت أقف ذليلاً في حضرة المعرفة، واهماً في أن قصور الأجوبة التي كنت أعثر عليها، أو تقدم لي على هذا السؤال المهم لم يكن ناشئاً عن خطأ فيها بل إنما نشأ عن جهلي المطبق. ولكن هذه القضية لم تكن سخرية أو وسيلة للتسلية وتمضية الوقت عندي، بل كانت شغلي الشاغل في الحياة ولذلك رأيت نفسي مضطراً في نهاية الأمر إلى الاعتقاد بأن هذه المسائل التي كانت تخطر لي هي أعظم المسائل التي تنشد المعرفة البشرية الجواب عليها، وأن اهتمامي بها وبمعالجة الجواب عليها لم يكن خطأ مني، بل إنما هو خطأ من العلم الذي يدّعي أن في مناله الجواب عليها.

إن السؤال الذي حملني وأنا في الخمسين من عمري على التعلق بفكرة الانتحار هو بالحقيقة أبسط الأسئلة التي تخطر على

قلب الإنسان، وهو كائن في نفوس جميع الناس من الطفل الرضيع إلى أحكم الحكماء لأن الحياة مستحيلة بدونه كما رأيت بالاختبار الشخصي وها أنا أعبّر عنه بما يأتي:

ماذا سيصير بما أعلمه اليوم وأعلمه غداً؟ وما الذي تصير إليه حياتي كلها؟

أو بعبارة أخرى:

لماذا يجب أن أعيش في هذا العالم؟ ولماذا يجب أن تكون لي رغبات؟ ولماذا يجب أن أعمل لنفسي عملاً؟

أو إننا نضعه بهذه العبارة زيادة في الإيضاح:

هل لحياتي من معنى يعجز عن القضاء عليه الموت الذي ينتظرني بفارغ الصبر؟

هذا هو السؤال الواحد المعبر عنه بصور مختلفة الذي نشدت الجواب عليه في جداول المعرفة البشرية فوجدت أن المعرفة البشرية تنقسم تجاهه إلى قسمين: قسم سلبي وقسم إيجابي: أما الجواب على قضايا الحياة فلا أثر له لا في القسم السلبي ولا في الإيجابي.

فالقسم الواحد من المعرفة البشرية ينكر وجود مثل هذا السؤال، ولكنه يقدم لك في الوقت نفسه أجوبة دقيقة على الكثير من المباحث والاستنباطات التي يستقل بها لنفسه. وهم يطلقون على هذا النوع من المعرفة اسم العلم الاختباري الطبيعي ويبنون صرحه على أساس الرياضيات. أما القسم الثاني من المعرفة فإن أنصاره يقبلون هذا السؤال ولكنهم لا يجاوبون عليه وهم يطلقون

على معرفتهم اسم الفلسفة المجردة ويبنون هيكلها على أساس علوم ما وراء الطبيعة.

أما أنا فقد شعرت في فجر شبابي بميل كلّي إلى الدروس المجردة ولكن الرياضيات والعلوم الطبيعية غوتني بسحرها في فجر رجولتي. وقد كنت قبل أن خطر لي هذا السؤال عن معنى الحياة - السؤال الذي نشأ في أعماقي ونما نمواً عجيباً في فكري وهو يطلب الجواب عليه بفارغ الصبر - راضياً بالأجوبة التقليدية المصطنعة التي كانت تقدمها المعرفة البشرية لفكري.

ففي حقل الاختبار الشخصي كنت أقول لنفسي:

«كل شيء ينمو ويتغير ويتعرض للاضطراب والكمال ولهذا النمو وهذا التغير شريعة ثابتة سائدة. أنت جزء من الكل. فإذا تعلمت كل ما تقدر عليه عن هذا الكل، ودرست شريعة نموه وتغيره فأنت ولا شك مدرك مركزك في هذه الوحدة العظيمة وبالغ معرفة نفسك أيضاً».

إنني أخجل باعترافي هذا ولكن مثل هذا الرأي كان يرضيني ويقنعني في عهد مضى. ومما زاد في قناعتي هذه أنني أنا نفسي كنت أنمو في ذلك العهد، فكانت عضلاتي تتقوى وتكبر وذاكرتي تتسع وتزداد ثرواتها، وقوى فكري وإدراكي تسير إلى الأمام في كل يوم. وإني بما كنت أشعر به من هذا النمو العظيم كنت أعتقد أن شريعة نموي هذه هي بعينها شريعة الوجود، وهي كافية لإيضاح معنى حياتي.

ولكن جاء أخيراً العهد الذي وقف فيه نموي، فشعرت أنني

عوضاً عن أنمو وأسير إلى الأمام صرت أضعف وأسير إلى الوراء بكل قواي. فقد ضعفت عضلاتي، وبدأت أسناني وأضراسي بالسقوط، فرأيت أن شريعة النمو هذه لا يمكن أن توضح لي شيئاً بل ولا يمكن أن تكون موجودة قط. فأدركت حينئذ أن الذي أطلقت عليه اسم الشريعة العامة لم يكن سوى تأثير بسيط حدث في حياتي في عمر خاص فقط.

فعمدت إلى هذه الشريعة في الحال أدقق في درس طبيعتها، فأدركت بعد الدرس والفحص أنه يستحيل أن توجد في الوجود شرائع للنمو الدائم، وأن القائل بأن كل ما في الوجود غير المحدود تام، متغير، متبدل، متكمل، إنما هو أقرب إلى الجنون منه إلى العقل فثبت لدي أخيراً أن هذه الكلمات لا معنى لها. لأن البسيط والمركب أو الماضي والمستقبل، أو الأفضل والأردأ، لا أثر لوجودها في العالم غير المحدود.

وهكذا ظل سؤالي الشخصي: «لماذا أعيش وأرغب وأعمل؟» سراً غامضاً لا جواب عليه. وقد عرفت إذّاك أن فروع المعرفة هذه لذيذ درسها، شيق التأمل فيها، ولكنها كانت تظهر، بملء الوضوح عجزها الكامل عن الإجابة على مسائل الحياة: وهي كلما أبعدت عن البحث في هذه المسائل المتعلقة بالحياة ازدادت قوة وحجة وكلما سعت إلى الإجابة على مسائل الحياة ازدادت غموضاً، وخسرت نفوذها وجاذبيتها للقلوب. وإذا نظرنا إلى فروع المعرفة التي جربت الجواب على قضايا الحياة، مثل علوم درس الأعضاء ووظائفها والنفس وانفعالاتها، والحياة ونشوئها، والاجتماع

وتطوره وشرائعه، فإننا نرى أمامنا في الحال فقراً فكرياً هائلاً، وغموضاً لا حد له، وادعاء فارغاً بقدرتها على مجاوبة أسئلة لا قوة لها على الجواب عليها وتناقضاً مطرداً بين المفكرين والمشتغلين بها أحدهم للآخر، بل وواحدهم لنفسه بين عشية وضحاها. وإذا نظرنا إلى فروع المعرفة التي لم تهتم بقضايا الحياة، بل حصرت جهودها بالسعي وراء الجواب المقنع على المسائل العلمية المختصة بها، فإننا نضيع بين أمواج بحر الإعجاب بالذكاء البشري، ولكننا نعرف قبل ذلك أننا لن نهتدي إلى الجواب المنشود على أسئلتنا المتعلقة بالحياة نفسها، لأن فروع هذه المعرفة تتجاهل قضية الحياة وتعرض عنها كأن لا وجود لها.

وإليك ما يقوله أنصار هذه المعرفة: «نحن لا نقدر أن نقول لك ما أنت، ولا لماذا تعيش في هذا العالم، فإننا لا ندرس مثل هذه المسائل. ولكن إذا أردت أن تعرف شرائع النور، والألفة الكيماوية، ونمو الكائنات العضوية، وإذا رغبت في معرفة الشرائع التي تسود على الأجسام المختلفة، وأشكال هذه الأجسام، وحجمها، وعلاقتها أحدها بالآخر، وإذا أردت أن تعلم شرائع فكرك فنحن قادرون أن نقدم لك أجوبة دقيقة واضحة على كل ذلك». إن علاقة العلم المجرد بمسألة معنى الحياة تلخص بما يأتي:

سؤال: «لماذا أعيش في هذا العالم؟»

جواب: «إن ذرات صغيرة، لا نهاية لصغرها، تمتزج بعضها ببعض، بصورة غير متناهية في فضاء غير متناه، وزمان غير متناه،

وتغير شكلها بصورة غير محدودة ولامتناهية. فإذا تعلمت شرائع هذه التغيرات أدركت في الحال لماذا تعيش في هذا العالم».

كثيراً ما كنت أناجي نفسي في تأملاتي قائلاً: « إن العلل الروحية قائمة على أصل شجرة حياة الإنسان ونموه وهذه العلل هي المبادئ العظمى التي تسود حياته بأسرها. وأعظم ما تظهر به هذه المبادئ العظمى في الدين، والعلوم، والفنون، ونظم الحكومات المختلفة. وهذه المبادئ سائرة إلى الأمام، مرتقية إلى العلاء درجة درجة، إلى أن يبلغ الإنسان قنة صلاحه. إنني عضو في المجتمع البشري، وجزء من الإنسانية، ولذلك فإن الواجب يدعوني أن أقوم بقسطي من العمل الصالح بنشر مبادئ الإنسانية هذه وتعزيزها في حياة الناس».

قد رضيت بهذه الأفكار في أيام ضعفي العقلي. ولكن عندما عرضت لي قضية الحياة قضت كل هذه الآراء في أعماقي كأنها لم تكن. فإذا أعرضنا عن إيضاح السفسطة الخبيثة التي تستخدمها المعرفة التي من هذا النوع لتظهر النتائج الخاصة التي وصلت إليها من درس جزء صغير من الإنسانية كأنها نتائج عامة للإنسانية قاطبة، وإذا أغمضنا الطرف عن التناقض الغريب، الذي لا أول له يُعرف ولا آخر يوصف، بين زعماء هذه النظرية، والخلاف المستحكم بينهم في تحديد مبادئ الإنسانية، فإننا لا نقدر أن نتجاهل الغرابة، بل الجنون، الذي في مثل هذا النوع من التفكير، الذي يعلمنا أننا قبل أن نجيب على السؤال الذي يسأله كل إنسان «من أنا؟» أو «لماذا أعيش في العالم؟» أو «ما الذي يجب عليّ عمله؟» يجب

علينا أولاً أن نجيب على هذا السؤال:

«ما هي حياة تلك البشرية أو الإنسانية المجهولة منا، التي لا نعرف منها سوى جزء صغير في قسم من الوقت؟»

فلكي يفهم الإنسان حقيقة ذاته يجب عليه والحالة هذه أن يعرف حقيقة الإنسانية السرية، التي تتألف من ملايين الناس الذين يجهلون حقيقة ذواتهم مثله...

أعترف بملء الأمانة أنني آمنت من صميم قلبي بمثل هذا الرأي في عهد مضى من حياتي. وكان لي في ذلك العهد مبادئ عزيزة أكيّف بموجبها تخيلاتي، وطالما جاهدت لأؤلف بواسطتها نظرية جديدة تخولني أن أنظر إلى أوهامي نظرتي إلى شريعة الإنسانية المقدسة. ولكن حالما شعرت في أعماقي بالسؤال الذي نما في فكري عن معنى الحياة، زالت هذه النظرية ولم يبق لها أثر في ذهني. فأدركت في الحال أنه كما أن في المعرفة الاختبارية أو الحسية علوماً حقيقية وعلوماً وهمية تجرب الجواب على مسائل خارجة عن دائرة صلاحيتها، هكذا نجد في دائرة المعرفة النظرية فلسفات فاسدة كثيرة تحاول الجواب على ما هو فوق دائرة عملها... ولذلك نرى المتمسكين بعلم الفقه، وعلم الاجتماع التاريخي، يشتغلون بحل القضايا المتعلقة بالإنسان وحياته، بواسطة حل القضية العظمى، بالنسبة إلى هذه وهي قضية حياة الإنسانية العامة وقلّما يتفق اثنان منهم على أمر واحد.

ولكن كما أن الإنسان الذي يسأل بحرارة: «كيف يجب أن أعيش؟» لا يستطيع أن يقتنع بالجواب الذي تقدمه له علوم الطبيعة،

وهو: «ادرس في زمان غير محدود، وفضاء غير محدود، الوحدة غير المحدودة، للأجزاء غير المحدودة، المتحدة بعضها ببعض، والمتغيرة بصورة غير محدودة، ومتى عرفت كل هذا تدرك بالحقيقة معنى حياتك وحقيقتها!» هكذا يعجز الرجل المخلص عن الاقتناع بالجواب الذي يقدمه له العلم النظري بقوله: «ادرس حياة الإنسانية العامة، وحينئذ ولو جهلت بداءتها ونهايتها ومعرفة الأجزاء التي تتألف منها فإنك بالحقيقة تعرف معنى حياتك».

فالعلوم الطبيعية والعلوم النظرية سواء تجاه قضية الحياة، لأن اهتمام أصحابها بمباحث خارجة عن دائرة إدراكهم يجعل آراءهم من هذا القبيل كثيرة الغموض، ممتلئة بالأغلاط الفاضحة، والمتناقضات المضحكة. فقضية العلوم الطبيعية هي تعاقب العلة والمعلول في المظاهر المادية للحياة، وفي منال المشتغلين بهذه العلوم البلوغ إلى جواب يصح السكوت عليه في هذه القضية. ولكن إذا عرضت لهم قضية خارجة عن مادية الحياة ، تاهوا في ظلمة التخمين والظنون وخبطوا خبط عشواء في ليلة ظلماء. وقضية العلوم النظرية منحصرة في تصور وجود الحياة عن غير طريق تعاقب العلة والمعلول في المظاهر المادية للحياة. فإذا عرضت للمشتغلين بهذه العلوم قضية من هذا النوع، وقفوا تجاهها حيارى لا يفقهون ما يقولون.

للعلوم الطبيعية أهمية وضعية فائقة، لأنها تظهر لنا عظمة القوة الفكرية التي أعطيناها للبحث والدرس، على شرط أن لا تخرج عن دائرة مباحثها المادية المجردة. وللعلوم النظرية أهمية كبرى في

الحياة، لأنها تظهر عظمة الكائن في فكر الإنسان، إذا حصره صاحبه في دائرته المختصة به، ولم يذهب إلى ما ليس من خصائصه خارج حدود علوم ما وراء الطبيعة والفلسفة.

أما الطريقة التي عبّرت فيها هذه العلوم عن سؤالنا الحاضر فكما يأتي: «ما أنا؟ وما هو الوجود بأسره؟ ولماذا وُجدت أنا؟ ولماذا وُجد هذا الوجود؟» وقد أجابت هذه العلوم على هذا السؤال بطريقة واحدة. مهما تنوع الاسم الذي يطلقه الفيلسوف على مبدأ الحياة الكائن في أعماقي وفي أعماق جميع الكائنات الحية، سواء دعاه فكراً، أو جوهراً، أو روحاً، أو إرادة فهو لا يبرح على ممر العصور يعترف بأنه حقيقة، ويصرح بأن لي وجوداً حقيقياً، ولكنه لا يعرف لماذا وجدت، ولا يحاول أن يجاوب على هذا السؤال، إذا شاء أن يكون مفكراً دقيقاً، لأن مثل هذا الجواب خارج عن دائرة إدراكه.

إنني أسأل قائلاً: «ولماذا وجدت هذه الحقيقة؟ وماذا يصير إليه كيانها الآن وفي المستقبل؟» فالفلسفة لا تعجز عن الجواب على هذا السؤال فقط، بل تجد نفسها مضطرة إلى سؤال مثله. وإذا شاء المشتغلون بها أن يحتفظوا بغايتها الأولية في عملها، وجب عليهم أن يضعوا هذا السؤال بصيغته الواضحة، ويثبتوا أبداً على الاعتصام بمجاوبة السؤال الأول: «ما أنا؟ وما هو الوجود بأسره؟» هكذا: «كل شيء ولا شيء». أما السؤال الثاني: «لماذا وجدت أنا؟ ولماذا وجد هذا الوجود؟» فيجب الجواب عليه هكذا: «لا أعرف».

على هذا السؤال كنت أفحص أجوبة الفلاسفة النظريين، وأدرسها، وأقلبها، وأنا لا أجد جواباً على سؤالي. ولو اقتصر أمري في العلوم النظرية، على ما كان في العلوم الطبيعية، أن الاهتداء إلى أن الجواب على سؤالي خارج عن منطقة مباحثها، لكنت قنعت ورضيت، ولكن هذه الأخرى - العلوم النظرية - زادت حيرتي، لأنها على رغم ما بذله فلاسفتها من الجهود الكثيرة، أوضحت أخيراً أنه ما من جواب لسؤالي، الذي وضعوه أمام عيني بصورة أكثر تعقيداً وصعوبة من قبل.

الفصل السادس

وفي تفتيشي عن حل لقضية الحياة، كنت أشبه الرجل الضائع في غابة، يقبل على سهل فسيح، فيتسلق شجرة، وينظر من أعلاها سهولاً واسعة لا تقف العين على آخرها، ولا مأوى يلجأ إليه فيها - يرى كل هذا فيدرك أن ليس فيها أحد لينقذه، فيرجع إلى الأحراج، يتخبط في دياجير ظلمتها، ولا يهتدي إلى ضالته المنشودة.

على هذا المنوال ضلّت بي السبيل في المعرفة البشرية، فلم أجد لي ملجأ، لا في نور العلوم الرياضية والطبيعية، التي كانت سبلها مفتوحة أمامي، ولا في ظلمة الفلسفة، التي كانت تقودني كل خطوة فيها من السيئ إلى الأسوأ، ومن المظلم إلى الأكثر ظلاماً - إلى أن ثبت لدي أخيراً أنه لم يكن، ولن يكون في الوجود شيء مما أفتش عنه. لأنني عندما تبعت نور العلم، الذي يتوهم الناس قدرته على حل قضايا الحياة، كنت أجد نفسي أبعد كثيراً عن الحقيقة التي أنشدها. وكلما وضحت سماء المعرفة المنبسطة فوقي، وزادت نقاوتها، وتعاظم سحرها وتعمقت في

إدراك أسرارها، والاطلاع على دقائقها، كنت أجدها بعيدة عن قضاء حاجتي، قاصرة عن مجاوبتي على مسائلي.

ولذلك قلت في نفسي: «إنني أعرف الآن كل ما تدعي العلوم معرفته. ولكن الجواب على سؤالي المتعلق بمعنى حياتي لا يمكن أن أحصل عليه بهذه الطريقة».

رأيت أيضاً أن الفلسفة، التي قد تكون غايتها الأولى في البحث عن المسائل التي أبحث أنا عنها، لم تقدر أن تقدم لي سوى الجواب الذي قدمته أنا لنفسي هكذا:

سؤال: «ما هو معنى حياتي؟»

جواب: «لا معنى لها».

أو بعبارة أخرى:

س: «ما مصير حياتي؟»

ج: «لا شيء».

أو س: «لماذا يوجد في الوجود كل ما هو موجود؟»

ج: «لأنه موجود».

عندما أقبلت على درس أحد فروع المعرفة البشرية الوضعية وجدت كثيراً من الأجوبة الدقيقة على مسائل لم يخطر لي قط أن أسألها: مثل التركيب الكيماوي للمواد المتألفة منها النجوم، وحركة الشمس حول برج هرقل، وأصل أنواع الأحياء منها الإنسان، والذرات الصغيرة التي يتألف منها الأثير. ولكن الجواب الوحيد الذي قدمه العلم في تفسير معنى حياتي كان كما يأتي:

«أنت كما تسمّي حياتك، اتحاد موقت من الذرات المختلفة.

والحركة المشتركة بين هذه الذرات بعضها مع بعض قد أوجدت ما تسمّيه حياتك. وهذا التجمع بين الذرات المتألف منها جسدك، تظل له حركته زمناً محدوداً، تهدأ حركة هذه الذرات بعده، فتنتهي بهدوئها هذه القوة التي تسمّيها حياتك، وبانتهائها يقضى على جميع هذه المسائل التي تشغل فكرك اليوم. أنت كتلة متجمعة أجزاؤها المجهولة بعضها مع بعض بطريق الصدفة. وهذه الكتلة تتجدد أجزاؤها من حين إلى حين. وهذا التجدد يطلق عليه الناس اسم الحياة. ولكن هذه الكتلة لا تلبث أن تتلاشى، فيبطل تجددها، وتزول معه كل المسائل والشكوك».

هذا هو الجواب الذي حصلت عليه من الجهة الدقيقة للمعرفة البشرية الوضعية، التي لا تستطيع، إذا أخلصت لمبادئها، أن تقدم غيره جواباً.

ومثل هذا الجواب يبرهن أن هذه العلوم لا تقدر أن تجاوب على سؤالنا الحاضر. لأنه بإيضاحه لي أن حياتي ذرة محدودة من غير المحدود وغير المتناهي لا يقصر عن الجواب على سؤالي فقط، بل يقضي كل رجاء في قلبي بأن لحياتي معنى يستحق أن أعيش لأجله.

أما الحل المظلم الذي تقدمه هذه العلوم الوضعية الطبيعية للتوفيق بين نظرياتها ونظريات العلوم الفلسفية، بقولها: «إن معنى الحياة الحقيقي قائم في حصر قواها بالسعي وراء التقدم فإنه لا يمكن أن ينظر إليه بعين الاعتبار».

فإن العلوم النظرية الفلسفية المتمسكة بمبادئها الأساسية قد

أجابت في جميع الأجيال، كما تجاوب اليوم، على هذا السؤال بالصور التالية:

«الوجود أبديّ خالد وغير مدرك. وحياة الإنسان جزء صغير غير مدرك من الوجود الكلي غير المدرك».

وهكذا تركت كل الآراء التي لجأ إليها الناس، للتوفيق بين العلوم الطبيعية والعلوم النظرية، وأطلقوا عليها اسم العلوم الشرعية والاقتصادية والتاريخية. لأننا في هذه العلوم أيضاً نرى تصوراً كاذباً للتقدم والكمال. فبعد أن كان التقدم فيما مضى شاملاً كل شيء أصبح الآن منحصراً في الحياة البشرية. والتقدم والكمال سواء كانا في الكل أم في الجزء، لا غاية لهما، ولا محجة يسيران إليها، ولذلك لا يمكن أن يجاوبا على سؤالي.

من جميع ما تقدم رأيت، بملء الوضوح، أن العلوم النظرية الدقيقة، والفلسفة المخلصة لغايتها ومبادئها، التي لا يهم المشتغلين بها ما يحصلون عليه من النفع أو الخسارة في سبيلها لا تستطيع أن تجاوب على قضيتنا الحاضرة إلا بالجواب الذي قدمه سقراط وشوبنهور وسليمان وبوذا.

قال سقراط وهو يستعد للموت: «نحن ندنو من الحق كلما بعدنا عن الحياة». فلماذا نحن الذين نحب الحق نسعى وراء الموت؟ لكي نتحرر من الجسد والأوجاع التي ترافق الحياة فيه. فإذا كان الحال هكذا، فكيف يجوز لنا أن نخاف من دنو الموت؟

الحكيم ينشد الموت في كل ساعة من حياته، ولذلك فالموت لا يرعب الحكماء. وهذا نفس ما عبّر عنه شوبنهور بقوله:

«إن المبدأ الأساسي لكل ما في الوجود هو الإرادة. وفي جميع مظاهر الوجود، من قوى الطبيعة غير العاقلة، إلى جهود الإنسان العاقل، لا نستطيع أن نرى أثراً لوجود قوة غير هذه الإرادة. ولذلك لا نقدر أن نهرب من النتيجة المنطقية التالية: إذا أنكرنا هذه الإرادة، وقضينا على وجودها، فإن كل مظاهر الوجود تزول في الحال بزوالها. فإن لجميع الجهود، والعواطف التي نراها أمام عيوننا اليوم، نهاية لا بد منها. وكل ما في الوجود من الكائنات الحية، وغير الحية، صائر في يوم من الأيام إلى العدم، بزوال الإرادة التي تريده، وتحبه، وتتمتع به. فإذا بطل وجود هذه الإرادة، فإن الوجود بأسره يضمحل ويتلاشى. ولكن هذا المصير إلى العدم تعارضه طبيعتنا، وتخالفه رغبتنا في الحياة، التي تعمل على وجودنا، ووجود العالم الذي نعيش فيه. فالوجود بأسره ما هو عند التحقيق إلا هذه الرغبة التي في أعماقنا - الرغبة في الحياة التي تحملنا على الخوف من المصير إلى العدم. وهذه الرغبة العظمى في الحياة لا توضح لنا من أسرار حياتنا سوى: أن الحياة كلها هي هذه الإرادة أو الرغبة في المعيشة وأكثر من هذا لا نعرف شيئاً. لأجل هذا نرى أنه بعد انتهاء رغباتنا الكثيرة، والقضاء الأخير على إرادتنا، لا يبقى من أثر لحياتنا وتصبح لا شيء. وكل ما في هذا الوجود من الكائنات، والشموس، والمجرات هو لا شيء بعد زوال إرادتنا أو حياتنا: لأن وجوده، أو بالحري شعورنا بوجوده ناشئ عن وجود هذا الشعور فينا، ولذلك فهو زائل بزوال هذا الشعور فينا.

وإليك ما يقوله سليمان في هذا الموضوع: «باطل الأباطيل يقول الجامعة. باطل الأباطيل كل شيء باطل. أي فائدة للبشر من جميع تعبهم الذي يعانونه تحت الشمس؟ جيل يمضي، وجيل يأتي، والأرض قائمة مدى الدهر... ما كان فهو الذي سيكون، وما صنع فهو الذي سيصنع، فليس تحت الشمس شيء جديد. رب أمر يقال عنه أنظر هذا جديد. بل قد كان في الدهور التي سلفت قبلنا ليس من ذكر لما سبق، ولا الذي يستقبل يكون له ذكر عند الذين يأتون من بعده.

«أنا الجامعة، ملكت على إسرائيل بأورشليم. فوجهت قلبي ليطلب، ويبحث بالحكمة، عن كل ما صنع تحت السماء: فإذا هو عناء رديء جعله اللّه لبني البشر ليعتنوا به. رأيت جميع الأعمال التي عملت تحت الشمس. فإذا الجميع باطل وكآبة الروح. لقد ناجيت قلبي قائلاً: هأنذا قد عظمت، وازددت حكمة فوق كل من كان قبلي بأورشليم، وأكثر قلبي من مطالعة الحكمة والعلم. ووجهت قلبي لمعرفة الحكمة، ومعرفة الجنون والحماقة، فعرفت أن هذا أيضاً كآبة الروح. لأن في كثرة الحكمة كثرة الغمة، ومن ازداد علماً ازداد كرباً.

«ثم ناجيت قلبي قائلاً: هلم قابلوك بالفرح. وإذا هذا أيضاً باطل. قلت للضحك فيك جنون! وللفرح، ماذا تنفع؟ أجلت في قلبي أن أعلل جسدي بالخمر، وقلبي متصرف بالحكمة، وأن أختبر الحماقة حتى أرى ما الخبر لبني البشر فيصنعوه تحت السماء مدة أيام حياتهم. فاتخذت أعمالاً عظيمة: بنيت لي بيوتاً،

وغرست لي كروماً وأنشأت لي جنات وفراديس، وغرست فيها أشجاراً من كل ثمر، وصنعت لي برك ماء لأسقي بها الخمائل النامية الأشجار، واقتنيت عبيداً وإماء، وكان بيتي عامراً بالبنين، ورزقت مواشي كثيرة من البقر والغنم، حتى فقت جميع الذين كانوا قبلي بأورشليم. جمعت لي فضة وذهباً، مع أموال الملوك الأقاليم، واتخذت لي مغنّين ومغنّيات وأصناف لذّات بني البشر، وحليلة وسراري، فزدت عظمة ونمواً على جميع الذين كانوا قبلي بأورشليم. والحكمة أيضاً لم تبارحني، وكل ما ابتغته عيناي لم أدعه يفوتهما، ولا منحت قلبي من الفرح شيئاً، بل فرح قلبي بكل تعبي، وكنت أحسب أن ذلك هو حظي من تعبي كله. ثم التفت إلى جميع أعمالي التي عملت يداي وإلى ما عانيت من التعب في عملها، فإذا الجميع باطل وكآبة الروح ولا فائدة في شيء تحت الشمس!

«ثم التفت لأنظر في الحكمة، والجنون، والحماقة... فرأيت أن الحكمة تفضل الحماقة، كما أن النور يفضل الظلمة.

«للحكيم عينان في رأسه، أما الجاهل فيسير في الظلمة. لكني علمت أيضاً أن حادثة واحدة تحدث لكليهما. فقلت في قلبي: إن الذي يحدث للجاهل يحدث لي أنا أيضاً. إذن، فلم حكمتي هذه الوافرة فقلت في قلبي هذا أيضاً باطل! فإنه ليس من ذكر للحكيم وللجاهل كليهما إلى الأبد! إذ في الأيام الآتية كل شيء ينسى. وا أسفاه! يموت الحكيم كالجاهل!

«فكرهت الحياة إذ ساءني العمل الذي يعمل تحت الشمس

لأنه كله باطل وكآبة الروح! وكرهت جميع ما عانيت تحت الشمس من تعبي الذي سأتركه لإنسان يخلفني. . . فأي فائدة للإنسان من جميع تعبه ومن كآبة قلبه التي عاناها تحت الشمس؟ فإنما أيامه كلها أحزان، وأعماله كروب، حتى في الليل لا يستريح قلبه. هذا أيضاً باطل! ليس في يد الإنسان أن يأكل ويشرب ويجني نفسه ثمرة تعبه: فإني رأيت هذا إنما هو من يد اللّه. . .

«كل يصاب بكل. وحادث واحد للصديق وللمنافق، للصالح والطاهر وللنجس. للذابح ولغير الذابح. مثل الصالح مثل الخاطي والذي يحلف كالذي يتقي الحلف. وشر ما يجري تحت الشمس أن حادثاً واحداً للجميع، فتمتلئ قلوب بني البشر من الخبث، وصدورهم من الجنون في حياتهم، وفيما بعد يصيرون إلى الأموات.

«إن كل من يشارك الأحياء في أية حالة كانت، له رجاء لأن الكلب الحي خير من الأسد الميت. والأحياء يعلمون أنهم سيموتون أما الأموات فلا يعلمون شيئاً وليس لهم من جزاء بعد، إذ قد نسي ذكرهم. حبهم، وبغضهم، وغيرتهم، قد هلكت جميعاً، وليس لهم حظ بعد في شيء مما يجري تحت الشمس».

هكذا تكلم سليمان أو الرجل الذي كتب سفر الجامعة. وهذا ما يقوله حكيم هندي عظيم:

حدث مرة أن سيكاموني، الوارث الشرعي السعيد لعرش مجيد، الأمير الذي حظر عليه أن يرى المرض والشيخوخة والموت فيما هو يسير خارج قصره، رأى شيخاً راعب المنظر،

محدودب الظهر، لا أسنان في فمه. وإذ رأى الأمير، الذي لم يرَ قبل ذلك شيخاً قط، هذا المنظر البشع تعجب في ذاته، وسأل سائق عربته جلية الأمر، ولماذا كان ذلك الرجل في تلك الحالة المحزنة. وعندما عرف أن هذه الحالة شاملة جميع الناس، وأنه هو نفسه، الأمير الشاب آنئذ، سيصير يوماً ما إلى تلك الحالة أمر السائق العربة أن يرجع به إلى القصر ليتسع له الوقت للتفكير في كل هذا. وهنالك دخل مخدعه، وأغلق بابه، وشرع يفكر في هذه الحالة الكئيبة وحيداً منفرداً عن الناس. ولعله اهتدى إلى فكر حصل بواسطته على التعزية، ولذلك نراه مرة ثانية يخرج بعربته سعيداً فرحاً طلباً للنزهة. بيد أنه لم يبعد كثيراً، حتى رأى مريضاً يئن متوجعاً، وقد فارقته صحته، وذوت نضارة وجهه، فأظلمت عيناه، وتغير لون بشرته. وإذ رأى الأمير، الذي لم يعرف شيئاً عن المرض من قبل، ذلك المريض سأل سائق العربة عن حقيقة الأمر فأخبره أن المرض ضعف يطرأ على جميع الأجساد، وأنه هو الأمير السعيد، الفرح بالحياة، قد يمرض في ساعة لا يعلمها، ويصير إلى مثل الحالة التي كان فيها الرجل المريض الواقف أمامه. فحزن الأمير إذ سمع كل هذا، وفارقته رغبته في النزهة، وأمر السائق أن يرجع به في الحال إلى منزله. وهنالك نشد تعزيته وسلام فكره. وقد يكون وجدهما إلى حين، لأننا لا نلبث أن نراه في العربة للمرة الثالثة طلباً للنزهة خارج القصر. ولكنه رأى في هذه المرة شيئاً جديداً، رجالاً يحملون محملاً ويسيرون به في الشارع. فسأل السائق قائلاً:

«ما هذا؟»

فأجابه: «رجل ميت».

قال الأمير: «وماذا تعني بقولك رجل ميت؟» فأخبره أن الرجل الميت هو الرجل مثل الذي يحمله الناس في المحمل أمامه.

فنزل الأمير من العربة وأُمِر الحاملون أن يقفوا فدنا من المحمل، ونزع الغطاء، ونظر في الجثة التي فيه.

ثم سأل قائلاً: «وماذا سيصير إليه هذا الرجل؟»

فأخبروه أن الجثة ستدفن في الأرض.

فقال لهم: «ولماذا؟»

فقالوا: «لأنه لن يعيش فيما بعد وسيخرج الدود والنتن منه إذا لم يدفنوه».

فسألهم الأمير: «وهل هذه قسمة عامة لجميع الناس؟ وهل أصير أنا إلى مثل هذه الحالة؟ هل أدفن تحت الأرض فأنتن وأمسي مطعماً للدود؟»

فقالوا: «نعم».

فصرخ بالسائق قائلاً: «ارجع بي إذن إلى منزلي فلن أخرج منه بعد اليوم، ولن أعرف النزهة في حياتي».

وهكذا نرى أن سيكاموني لم يجد طمأنينة في الحياة، ولذلك ثبت لديه أنه شر عظيم جداً، وبذل كل قوته ليحرر نفسه وأصدقاءه منها لكي لا تتجدد بعد الموت بل تستأصل من جذورها ههنا على الأرض. بمثل هذا يعلم جميع حكماء الهند.

وإلى القراء الأدباء الأجوبة التي رأت الحكمة البشرية أن تقدمها على قضية الحياة.

فالحكيم سقراط يقول: «حياة الجسد شر وكذب، ولذلك فإن القضاء على هذه الحياة خير يجب أن نسعى إليه بأسرنا».

والحكيم الألماني يقول: «الحياة هي عكس ما يجب أن تكون فهي شر كبير عوضاً عن أن تكون خيراً كبيراً. والعبور منها إلى لا شيء هو الخير الوحيد في الحياة».

وسليمان الحكيم يقول: «كل ما في العالم: الحماقة والحكمة، الغنى والفقر، الفرح والحزن، كل هذا باطل ولا قيمة له فالإنسان يولد ويموت ولا يبقى منه شيء، وهذا أيضاً باطل».

والحكيم الهندي يقول: «إن الذي يعرف أن الآلام، والأمراض والشيخوخة، والموت كوؤس لا بد من شربها يستحيل عليه أن يعيش برغد. ولذلك يجب أن تتخلص من الحياة وتنجو من إمكانيتها».

والذي قاله هؤلاء الحكماء العظماء قد فكر فيه ملايين الملايين من الناس وشعروا به. وأنا أيضاً فكرت به وشعرت بمثله الحياة كلها.

وهكذا فإن سياحتي في حقول المعرفة البشرية لم تقتصر على الفشل في شفائي من يأسي بل زادتني يأساً وشكاً. فالفرع الواحد من المعرفة يقف صامتاً تجاه السؤال عن معنى الحياة. والفرع الثاني أجابني جواباً صريحاً ثبت يأسي، وأراني أن الحالة التي أنا فيها نتيجة لضلالي أو ضعفاً طرأ على دماغي، بل إنما كانت على

العكس من هذا تؤكد لي أنني إنما أفكر بدقة، وأن آرائي متفقة مع النتائج الكبرى التي انتهى إليها أقدر مفكري الإنسانية.

لذلك لم أستطع أن أخدع فكري. كل شيء باطل! وكل مولودِ امرأةٍ تعس شقي! الموت خير من الحياة! والحكيم من ينزل عن كتفيه حمل الحياة الثقيل فيتخلص من الحياة مدى الدهر.

الفصل السابع

وبعد أن فشلت في الاهتداء إلى ضالتي في المعرفة والعلم والفلسفة شرعت أنشدها في الحياة نفسها، مؤملاً أن أجدها في الناس المحيطين بي. فبدأت أراقب الرجال الذين مثلي، وألاحظ كيفية معيشتهم، وموقفهم تجاه السؤال الذي حيَّرني وقادني إلى اليأس.

وإلى القارئ الأديب النتيجة التي وجدتها بين من هم مثلي في مركزهم الأدبي والاجتماعي.

وجدت أن أبناء الطبقة التي أنا منها يلجأون إلى وسائل أربع للهرب من الحياة الراعبة التي كنا فيها كلنا.

وأول هذه الوسائل الجهل. فإن أصحابه لا يدركون، ولا يريدون أن يفهموا، أن الحياة شر، وكل ما فيها باطل وقبض الريح. إن أبناء هذه الطبقة، وأكثرهم من النساء أو الشبان الصغار وبعض الرجال الأغنياء، لم يفهموا قضية الحياة ولم ينظروا إليها كما نظر إليها شوبنهور وسليمان وبوذا. فهم لا يرون الوحش الذي ينتظرهم ليفترسهم ولا الجرذين اللذين يقرضان الغصن المتعلقة

عليه حياتهم، ولذلك يلحسون نقط العسل القليلة التي يشاهدونها حواليهم برغبة ولذة. ولكنهم يلحسون هذا العسل إلى أجل مسمى، لأنهم لن يلبثوا أن يجدوا ما يلفت أنظارهم إلى الوحش، والجرذين، وحينئذ تفارقهم لذتهم ورغبتهم معاً. من هؤلاء وأمثالهم لم أقدر أن أتعلم شيئاً، لأن الإنسان يتعذر عليه أن يتجاهل ما هو واثق بمعرفته.

ووسيلة الهرب الثانية هي الوسيلة التي يلجأ إليها الشهوانيون وعبّاد أهوائهم الجامحة. وهي تقضي على أصحابها أنهم بالرغم من معرفتهم أن كل ما في الحياة من اللذيذ والجميل باطل عند التحقيق، يجب أن يغمضوا عيونهم عن رؤية الوحش والجرذين، ويطلبوا في الوقت نفسه كل ما يمكنهم الحصول عليه من عسل الحياة، وخصوصاً حيث يوجد الكثير منه. وقد أشار سليمان إلى هذا بما يأتي:

«فمدحت الفرح، لأنه ليس في يد الإنسان خير تحت الشمس غير أن يأكل ويشرب ويفرح، فهذا يثبت له من تعبه أيام حياته التي منحها اللّه له تحت الشمس... فأذهِبْ كل خبزك بفرح، واشربْ خمرك بقلب مسرور... تمتع جميع أيام حياتك الفانية، بالعيش مع المرأة التي أحببتها وأوتيتها تحت الشمس، لتقضي أيامك الفانية، فإن ذلك حظك من الحياة، ومن تعبك الذي تعانيه تحت الشمس كل ما تصل إليه يدك من عمل فاعمله بجميع قوتك، فإنه لا عمل، ولا حسبان، ولا علم، ولا حكمة، في القبر الذي أنت صائر إليه».

على هذه الصورة يقضي أكثر أبناء طبقتنا حياتهم. فإن الحالة التي يوجدون فيها توضح لهم الجميل في الحياة، وتحجب عن عيونهم البشع والشرير. وما في آدابهم من البلاهة يمكنهم من نسيان حقيقة هم في حاجة إلى معرفتها: وهي أن كل الفرص التي يقدمها لهم مركزهم هي شواذ لا يقاس عليه، لأن الذي تمتع به سليمان من طيبات الأرض لا يتاح إلا للقليلين من أصحاب الملايين. وإن مقابل كل رجل له ألف امرأة مثل سليمان يوجد رجل لا امرأة له، وكل قصر عظيم يحتاج، قبل أن يتم بناؤه ويتمتع به صاحبه، إلى ألف رجل يبنونه بأعراقهم وأتعابهم، وإن الفرصة التي جعلتني مثل سليمان اليوم كثيراً ما تنقلب فتجعلني كعبيد سليمان في الغد. ولكن حماقة هؤلاء الناس، وبلادة تصورهم، تساعدان على وضع برقع غليظ أمام عيونهم فيتعامون عن رؤية العوامل التي قضت على سعادة بوذا: وهي المرض، والشيخوخة، والموت، وكلها لا بد منها، إن لم يكن عاجلاً فآجلاً. ومتى حلت أنزلت الستارة على مسرح جميع الملذات والأفراح.

بيد أن الأكثرية الساحقة من أبناء هذه الأيام لا تريد أن تفكر إلا بهذه الطريقة. ومع أن بين هذه الأكثرية فريقاً يطلق على حياة رفقائه اسم الفلسفة الوضعية، محمولاً إلى هذه التسمية بغباوة فكره وبلادة خياله فإن هذا لا يفصلهم في عقيدتي عن أولئك الذين يلحسون العسل لكي يلتهوا به عن رؤية الخطر المحيق بهم. إنني لم أستطع اقتفاء خطوات هؤلاء الحمقى في عقيدتي، لأنه لم يكن لي بلادة تصورهم، وحماقة خيالهم، ولذلك لم أقدر أن أفعل

فعلهم فإنني، كجميع الراغبين في المعيشة المصحوبة بالفهم، لم أتمكن من تحويل عيني عن الجرذين والوحش بعد أن رأيتهما وعرفت الخطر الذي يعرضني له عملها.

والوسيلة الثالثة للهرب كائنة في الالتجاء إلى القوة والعزم. وهي تأمر بالقضاء على الحياة بعد معرفة شرها وبطلانها. ولكن الذين يعملون بها هم أندر من بيضة الديك، وهم مخاريق بقوتهم وعزيمتهم. فهم، إذ يدركون رداءة الأضحوكة التي تمثل على حساب الأحياء، ويعرفون أن سعادة الأموات أوفر من سعادة الأحياء، وأن عدم الوجود خير من الوجود، يقدمون في الحال على وضع حد نهائي لهذه الأضحوكة التي يسمّونها حياة بأية طريقة ممكنة: -حبل حول العنق، أو ماء يغرقون فيه، أو سكين يقطعون به قلوبهم، أو قطار يقفون في طريقه فيذهب بهم ويريحهم من شقائهم. إن عدد الذين يقدمون على مثل هذا العمل في طبقتنا الاجتماعية يتزايد في كل يوم، وأكثر أبنائه من الشبان والشابات الذين بلغوا شأواً واسعاً من العلم، ولكن مداركهم الداخلية لم تنضج بعد في أعماقهم.

قد رأيت هذه الوسيلة الثالثة للهرب من الحياة أفضل الوسائل ووددت لو في طوقي أن أعمل بها.

والوسيلة الرابعة للهرب من الحياة قوامها الضعف. وخلاصتها أن صاحبها، مع علمه بشرّ الحياة وبطلانها، فهو يواظب على المحافظة على حياته، على رغم معرفته أنها عقيمة لا نتيجة وراءها. إن أبناء هذه الطبقة يعلمون أن الموت أفضل من الحياة،

ولكن ليس لهم من القوة القسط الكافي لمساعدتهم على العمل بما يعرفون ولذلك يتمسكون بمخاوفهم، ويحجمون عن الانتحار، مترقبين وسيلة تريحهم من شر الحياة من غير أن يقتلوا ذواتهم. فالضعف وحده يعمل على مساعدة هؤلاء للهرب من شر الحياة، لأنني إذا عرفت ما هو الأفضل لراحتي، وأدركت أنني قادر أن أناله إذا شئت فلماذا لا أناله؟... هذه هي الطبقة التي كنت أحد أبنائها.

بمثل هذه الطريقة، وبهذه الوسائل الأربع، ينقذ أبناء طبقتي ذواتهم من تناقض مزعج في الحياة. ومهما أجهدت فكري فإنني أظل قاصراً عن الاهتداء إلى طريقة جديدة غير هذه الطرق الأربع. فالطريقة الأولى تقضي بأن نتجاهل شر الحياة وبطلانها وتفاهتها، ونغمض عيوننا عن رؤية الحقيقة القائلة بأن الموت خير من الحياة أما أنا فلو لم أعرف هذه الحقيقة لكان الأمر سهلاً عليّ ولكنني بعد أن رأيتها، لا أستطيع أن أغمض عيني عن رؤيتها.

والطريقة الثانية تقضي بأن نتمتع بالصالح في الحياة، من غير أن نفكر في المستقبل. ولكنني لم أقدر أن أفعل هذا قط. لأنني كسيكاموني، لا أستطيع أن أسير بعربتي وراء ملذاتي بعد أن عرفت أن في الحياة مصائب مثل الشيخوخة والمرض والموت. إن خيالي كان قاصراً عن البلوغ إلى هذه الحالة، وفوق ذلك لم أقدر أن أقنع بالملذات المؤقتة التي لا تبهجني ساعة حتى تؤلمني عاماً كاملاً.

والطريقة الثالثة تقضي على الإنسان الذي يعرف أن الحياة شر وحماقة أن يضع لها حداً بالانتحار. قد فهمت هذه وأحببتها،

ولكن لا أدري كيف كنت أهرب من الانتحار ولا أقدم عليه لسبب مجهول عندي.

والطريقة الرابعة تقضي بأن نقبل الحياة كما وصفها لنا شوبنهور وسليمان، عالمين أنها أضحوكة بليدة مزعجة، وأن مجرد الحياة برهان على الهزء والسخرية بصاحبها. ولكن مع كل ذلك يجب أن نقبلها كما هي، مغتسلين، لابسين، آكلين، شاربين، متكلمين، ومؤلفين كتباً أيضاً. ومع أن هذا المركز كان بعيداً عن فكري فقد رأيته أقرب الجميع إلى قلبي.

غير أنني أدركت الآن أنني لم أقتل نفسي في ذلك العهد لأنني كنت أشعر في أعماقي بصورة خفية مضطربة أن آرائي مشوشة مغلوطة. فمع أنني كنت أشارك الحكماء برأيهم بأن الحياة لا معنى لها، فقد كنت في الوقت نفسه أشعر بشك في جميع النتائج التي وصلت إليها بدرسي وأستطيع أن أعبّر عن هذا الشك بما يأتي:

«يحدثني عقلي أن الحياة مناقضة للعقل. فإن لم يكن في الوجود شيء أعلى من العقل، والحقيقة أنه ليس في الوجود أسمى من العقل أو بالحري ليس لنا برهان على مثل هذا، فالعقل إذن هو الذي خلق لي الحياة. فكيف يستطيع هذا العقل، والحالة هذه، أن ينكر وجود الحياة التي هو أوجدها؟ وإذا نظرنا إلى الموضوع من الجهة الثانية نقول: لو لم تكن لي حياة لما كان لي عقل، ولذلك فإن العقل بحكم الطبع هو ابن الحياة. فالحياة هي كل شيء. العقل هو ثمرة الحياة وهذا العقل نفسه ينكر الحياة التي أثمرته شجرتها».

لأجل هذا شعرت أن في طريقة تفكيري خطأ واضحاً. فقلت في نفسي:

«الحياة ولا شك بدون معنى. وهي شر وحماقة. ولكنني قد عشت ما مضى من عمري، ولا أزال حياً حتى هذه الساعة، وهكذا عاش جميع أبناء الجنس البشري وما برحوا يعيشون. فكيف يكون هذا. لماذا يعيش جميع الناس وهم قادرون متى شاءوا أن يموتوا أم هل أنا وشوبنهور وحدنا أعطينا الفهم والعقل لندرك فراغ الحياة وشرها وبطلانها؟»

إن رؤية بطلان الحياة سهلة جداً، وطالما كانت واضحة لأبسط البسطاء. ولكن الناس عاشوا وما زالوا يعيشون في كل ساعة. ولكن لماذا يعيش الناس، ولا يفكرون البتة في صوابية الحياة التي يحيونها؟

إن معرفتي التي حصلتها بالدرس والبحث، وأيّدتها حكمة أحكم الحكماء، أظهرت لي أن كل ما على الأرض من الكائنات العضوية وغير العضوية تحيط به وبوجوده حكمة سامية، وليس من حماقة إلا في حياتي وحدها. ولكن أولئك المجانين، ملايين الملايين من العامة الساذجة، لا يعرفون شيئاً عن تركيب الكائنات العضوية، وغير العضوية في الوجود، ولكنهم يعتقدون أن حياتهم خاضعة لشرائع حكمية معقولة جداً.

ثم فكرت في نفسي قائلاً: «ولكن من يدري، فلعل هنالك أمراً لم أقف عليه بعد ويجب أن أدرسه. فإن الجهل يتصرف في الغالب مثل تصرفي الحاضر فالجهل يقرر بملء الدقة كل ما يعرفه

ويثق بصحته فإذا رأى شيئاً لا يعرفه يصرح في الحال أنه بليد لا معنى له. فالإنسانية بجماعها قد عاشت على مرّ العصور، وهي عائشة الآن، كأنها تدرك معنى الحياة وهي لو تدرك معنى الحياة لما استطاعت أن تعيش. أما أن فأقول إن الحياة بأسرها لا معنى لها ولذلك لا أقدر أن أعيش».

ما من أحد يمنعنا أن ننكر الحياة بالانتحار. ولكن الذي يقتل نفسه ينقطع عن البحث في الحياة والمناظرة في موضوعها. إذا كنت تكره الحياة فاقتل نفسك. وإذا كنت تعيش ولا تفهم معنى حياتك فضع لها حداً، وأقلع عن حديثك وكتابتك أنك غير قادر أن تفهم حقيقة الحياة. أنت داخل إلى جماعة فرحين مسرورين قانعين بأفراحهم، عارفين جميعهم ما يعملون، ولماذا يعملونه. وأنت وحدك مقطب الحاجبين، مضطرب الفكر، ثائر على كل شيء حولك. فلماذا لا تخرج من تلك الجماعة وتريح نفسك وغيرك؟

وفوق كل هذا فمن نحن، الذين بعد أن اقتنعنا بضرورة الانتحار لا نجرؤ على الإقدام عليه، لضعفنا وعدم إجماع رأينا أو بعبارة أوضح لبلادتنا وحماقتنا التي نسير مبشرين بها كالمجانين الذين يحملون حجتهم معلقة حول أعناقهم.

إن حكمتنا مهما كانت مبنية على الحقيقة لم تمنحنا معرفة لحقيقة معنى الحياة، ولكن الإنسانية بأسرها لا تشكّ في أن الحياة لها معنى بنفسها.

والحقيقة التي لا مرية فيها أن الناس منذ أقدم أزمنة التاريخ

المعروفة قد عاشوا، ومع أنهم عرفوا كل المسائل التي خطرت لي عن بطلان الحياة وشرورها، فقد أعطوا الحياة معنى مختصاً بهم.

منذ بداءة حياة الإنسان اتخذ كل منهم رأيه لنفسه في حياته، وما برحوا يعيشون، ولكل منهم رأيه في الحياة حتى يومنا الحاضر. وكل ما في فكري، وما هو خارج عني طبيعياً كان أم غير طبيعي، فهو بالحقيقة ثمرة من أشجار معرفتهم. والقوة الفكرية التي حكمت بها على الحياة وقضيت عليها بالزوال إنما هي بالحقيقة مستمدة منهم وليس مني. فهم السبب الأول في ولادتي وتربيتي وتهذيبي. وهم الذين اقتلعوا الحديد من الأرض، وعلموا أبناءهم قطع الأشجار وتشحيلها، وتدجين البقر والخيل، وهم الذين أوجدوا الزراعة، والصناعة، وقربوا الناس بعضهم من بعض، وربطوا مصالحهم بالقوانين والشرائع العادلة، فجعلوا لحياتنا شكلاً منظماً، وعلمونا فوق كل هذا كيف نفكر وكيف نتكلم. وأنا صنع أيديهم، وابن عنايتهم وجهودهم، وتلميذ أفكارهم وأقوالهم، آتي اليوم لأبرهن لهم أن وجودهم بكامله لم يكن له معنى.

حينئذ قلت في نفسي: «إنني ولا شك مخطئ في تفكيري». ولكنني مع كل هذا لم أهتد إلى الغلط الذي ارتكبته.

الفصل الثامن

كل هذه الشكوك، التي أقدر الآن أن أعبّر عنها بوضوح، لم أكن إذّاك قادراً أن أعبّر عنها قط. لأنني في ذلك العهد المظلم لم أعرف أكثر من أشعر بأن النتائج التي وصلت إليها عن بطلان الحياة، مع كل ما يحيط بها من البراهين المنطقية، ويؤيدها من آراء عظماء المفكرين، فإن فيها خطأ لم أعرف موضعه. أما إذا كان الخطأ في النتيجة نفسها، أم في طريقة وضع المسألة من أصلها، فلم أعلم. وكل ما عرفته: أنني كنت أشعر أن عقلي، على شدة اقتناعه بالنتيجة التي بلغتها، لم يكن كافياً وحده للعمل بهذه النتيجة.

ولذلك لم يقدر فكري أن يحملني على العمل بما اعتقدت صحته وضرورته: يعني قتل نفسي.

وإني لا أقول الصدق إذا قلت إن عقلي وحده قادني إلى الحالة التي كنت فيها وحال دون انتحاري. فالعقل كان يعمل بغير انقطاع، ولكن هنالك قوة غير العقل كانت تعمل معه أيضاً، قوة أستطيع أن أطلق عليها اسم الشعور بالحياة. فقد عملت هذه القوة

في أعماقي، فكانت تقرر مركزي العملي تجاه جميع القضايا التي يعالجها فكري، وهي التي نشلتني من هوة اليأس التي سقطت فيها وعملت أخيراً على تغيير أفكاري بأسرها. فقد علمتني هذه القوة بملء الوضوح أنني مع مئات من مثلي لا نستطيع أن نؤلف الإنسانية بأسرها وهي نفسها أظهرت لي أنني ما برحت أجهل حقيقة الحياة الإنسانية.

عندما كنت أراقب الدائرة الضيقة التي تجمع أقراني في المركز الاجتماعي، كنت أرى أناساً لم يفهموا السؤال الذي أسأله وغيرهم من الذين أدركوا حقيقة هذا السؤال ولكنهم كانوا يخفون إدراكهم له بسكرهم بخمرة الحياة. وغيرهم من الذين أدركوه ولكنهم قتلوا ذواتهم، وأخيراً أولئك الذين فهموا حقيقة السؤال ولكنهم لضعفهم عاشوا بقية عمرهم في ظلمة الشك واليأس. ولكني لم أر غيرهم. وكان يخيّل إليَّ أن هذه الدائرة الضيقة المتألفة من المتعلمين والأغنياء والكسالى الذين كنت واحداً منهم، هي الإنسانية بأسرها، وأن بلايين الناس العائشين خارجاً عنها هم حيوانات وليسوا بشراً.

ومهما بدا لي اليوم مثل هذا الموقف غريباً، جنونياً، بعيداً عن تصور العقل الصحيح، -إنني أنا إذ أفكر في الحياة أستطيع أن أتجاهل وجود حياة الإنسانية العظمى المحيطة بي من كل جنب واقع في الخطأ القائل بأن حياة سليمان أو شوبنهور أو حياتي هي الحياة الطبيعية الحق، وأما حياة الملايين الأخرى من الناس فهي حماقة لا أهمية ولا شأن لها مهما بدا لي كل هذا غريباً اليوم، فهو الرأي الذي كنت أعتقد بصحته في ذلك الحين. فقد تملكني

العجب والغرور بعلمي وأدبي إذّاك، حتى خلت بل وثقت الثقة كلها، بأني مع سليمان وشوبنهور قد عبّرنا عن السؤال بطريقة كاملة لم يبقَ بعدها متسع لأحد ليصلح وضعه أو يضعه بصورة أفضل وأكمل من صورته وكنت أعتقد أن جميع ملايين الناس قد قصروا عن إدراك هذا السؤال، وأني أنا الرجل الوحيد الذي أهتم في التفتيش عن معنى الحياة. ولم يخطر قط أن أفكر قائلاً في نفسي:

«ولكن ما هو المعنى الذي أعطته للحياة، وتعطيه اليوم، الملايين من الناس الذين عاشوا ويعيشون في العالم؟»

بمثل هذه الحالة الفكرية المضطربة عشت زمناً طويلاً، ومع أني لم أستطع أن أعبّر عنها بوضوح، كما أعبّر عنها اليوم، فقد كانت ألزم لي من ظلي كما هي شاملة أكثر المفكرين من الأحرار والمتعلمين بيد أنني لا أدري إذا كان ميلي الفطري لطبقات العمال، الذي كان يضطرني أن أفهمهم وأرى أن غباوتهم ليست كما يصورها المفكرون أو إذا كان إخلاصي في عقيدتي أنني لا أستطيع أن أعرف شيئاً سوى الذهاب إلى المشنقة للتخلص من الحياة، قد حملني على الشعور بأنني إذا كنت أرغب أن أعيش وأفهم معنى الحياة يجب ألا أنشد ذلك بين الذين خسروا معنى حياتهم وجهلوا قيمتها ولذلك رغبوا في الانتحار، بل يجب أن أسعى إلى ذلك بين الملايين من الأحياء والأموات الذين بنوا لنا صروح الحياة التي نتمتع بها اليوم، وحملوا أثقال حياتهم وحياتنا فرحين.

وهكذا جعلت أراقب الحياة العامة بين جماهير الأحياء والأموات، حياة البسطاء وغير المتعلمين والفقراء، فوجدت فيها شيئاً يختلف الاختلاف كله عن حياة الأقلية الممتازة: وجدت أن كل هذه الملايين من العامة الأحياء، العائشين اليوم والذين عاشوا قبلهم، لم يخطر لهم أن ينضموا إلى أبناء طبقتي، ولم أستطع أن أحسبهم من الذين لا يفهمون المسألة التي قادتني إلى الشقاء، لأنهم كانوا يعرفون هذه المسألة ويجاوبون عليها بملء الدقة والوضوح. ولم أقدر أن أحسبهم شهوانيين، لأن حياتهم كانت أليفة التضحية والألم رفيقة أكثر مما هي رفقة اللذة والفرح. ولا يجوز حسبانهم بين الذين يعيشون على العكس من عقيدتهم ويصبرون على الحياة وهم عارفون أن الحياة لا معنى لها، لم أقدر أن أضع أولئك البسطاء في مصف هؤلاء لأن كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمال حياتهم حتى موتهم نفسه واضح لديهم. أما الانتحار فإنه معدوم بينهم وهم يحسبونه شر الجرائم. ولذلك ثبت لدي أن في هذه الإنسانية الساذجة معرفة صحيحة لمعنى الحياة عميت أنا عن الاهتداء إليها، لأني كنت أنظر إليها نظرة الاحتقار. ومن هذا كله رأيت أن المعرفة المبنية على أساس العقل تنكر معنى الحياة وترفضها. ولكن معنى الحياة الذي يفهمه الملايين من البسطاء مبني على معرفة سفسطائية محتقرة.

فالمعرفة المبنية على العقل، معرفة المستقبل والحكماء، تنكر معنى الحياة، ولكن أكثرية أبناء الإنسان يتمسكون بمعرفة لا أثر للعقل فيها وهذه المعرفة تثبت لهم أن للحياة معنى سامياً.

وهذه المعرفة التي لا سلطان للعقل فيها هي الإيمان الذي لم أقدر أن أقبله. ولذلك لم أستطع أن أسلم بوجود أقانيم ثلاثة في إله واحد، أو بخليقة الملائكة والأبالسة في وقت واحد وخليقة العالم في ستة أيام. كل هذا لم أستطع أن أقبله لأني كنت مستسلماً لسلطان عقلي فقط.

كان مركزي صعباً مزعجاً. لأن المعرفة التي يقدمها العقل تنكر الحياة، والمعرفة التي يمنحها الإيمان تنكر العقل، وكلا الأمرين صعب عليّ وخصوصاً الثاني منهما. فالمعرفة المبنية على العقل قد برهنت أن الحياة شر، وأن الناس يعرفون هذا وفي منالهم أن يقتلوا أنفسهم ويستريحوا من شر الحياة متى شاؤوا، ولكنهم ما برحوا يعيشون في العالم وينفرون من الانتحار، وأنا فرد منهم قد عشت طويلاً عالماً أن الحياة شر وحماقة لا معنى لها. ولو عشت بالإيمان لقضي عليَّ أن أهمل عقلي وأعرض عن تطلباته قبل أن أستطيع إدراك معنى الحياة ولكن عقلي هو القوة الوحيدة فيّ التي تطلب إدراك معنى الحياة فكيف يمكن أن أفهم معنى الحياة بدونه؟

الفصل التاسع

عند هذا الحد وقفت أمام مناقضة غريبة لم أجد سوى طريقتين للهرب منها. فإما أن يكون ما سمّيته معقولاً لا أثر للعقل فيه كما اعتقدت وفكرت، أو أن ما دعوته غير معقول لم يكن بعيداً عن العقل بمقدار ما خطر لي. ولذلك بدأت أفحص طريقة التفكير التي قادتني إلى نتائج المعرفة المبنية على العقل.

وقد وجدت بهذا الفحص أن الطريقة التي لجأت إليها صحيحة لا غبار عليها. لأن النتيجة القاضية بأن الحياة لا شيء لم يكن منها بد. ولكنني وجدت فيها غلطة واحدة. وهذه الغلطة هي أنني لم أحصر كل أفكاري في المسألة التي نحن في صدد البحث عنها، فقد كانت المسألة هكذا: «لماذا أعيش؟ أو بعبارة أخرى، ما هو الشيء الحقيقي غير الفاني الذي سيبقى من حياتي الخيالية الفانية؟ ما هو معنى وجودي المحدود في هذا الوجود غير المحدود؟» وقد جربت الجواب على هذا السؤال بدرس الحياة نفسها.

فظهر لي أن القرار في أي عدد من المسائل المتعلقة بالحياة لا

يمكن أن يقنعني، لأن سؤالي مهما بدا بسيطاً لأول وهلة كان يشمل وجوب إيضاح المحدود بغير المحدود والعكس بالعكس.

سألت نفسي، ما هو معنى حياتي، بقطع النظر عن الزمان والعلة والمكان. ولكنني كنت أجاوب نفسي على سؤالي واضعاً إياه هكذا: «ما هو معنى حياتي بالنسبة إلى الزمان والعلة والمكان» ولذلك كانت النتيجة أنني بعد إجهاد الفكر بالدرس والبحث وقتاً طويلاً لم أهتد إلى جواب قط.

ففي جميع مباحثي الفكرية مع نفسي كنت أقابل، مضطراً، المحدود بالمحدود، وغير المحدود بغير المحدود، ولذلك كانت النتيجة التي لا بد منها كما يأتي: «القوة هي القوة، والمادة هي المادة، والإرادة هي الإرادة، وغير المحدود هو غير المحدود، ولا شيء هو لا شيء»، لا أكثر ولا أقل. فقد حدث لي كما يحدث في الرياضيات، عندما نريد أن نحل معادلة يجب أن نحصل على أعداد متشابهة. فمع أن طريقة الحل صحيحة فإن الجواب يأتي هكذا: «ب تساوي ب، ج تساوي ج، ول تساوي ل». هذا هو نفس ما حدث لي في تفتيشي عن معنى حياتي. فقد تشابهت عندي جميع الأجوبة التي قدمها العلماء على اختلاف طبقاتهم.

والحقيقة الواضحة أن المعرفة المبنية على العقل فقط، المعرفة التي اعتمدها دسكرتس وعمل بها، تبدأ بالشك العام في كل شيء والإعراض عن كل معرفة أساسها الإيمان، والتمسك بكل ما يطلبه العقل ويؤيده الاختبار، وهي لا تستطيع أن تجاوب

على السؤال عن معنى الحياة إلا بنفس الجواب الذي حصلت عليه بنفسي، وهو جواب مبهم غامض.

خطر لي أولاً أن العلم قد أجاب على هذا السؤال جواباً باتاً، وهو جواب شوبنهور أن الحياة لا معنى لها وهي شر بذاتها. ولكنني وجدت بعد البحث الدقيق أن هذا الجواب ليس بالجواب البات أبداً، ولكن شعوري ونظري إليه جعلاه يظهر لي هكذا. أما الجواب الصريح، الذي أجاب به بوذا وسليمان وشوبنهور معاً واهمين أنهم أصابوا كبد الحقيقة، فهو أيضاً جواب ملتبس غير محدود، لأنه لا يظهر لنا إلا أن ج تساوي ج والحياة تساوي لا شيء. وهكذا نرى أن المعرفة الفلسفية لا تنكر شيئاً، ولكنها تجاوب أن مثل هذا السؤال لا يمكن حله بمقاييسها، ولذلك تظل القضية غير محدودة.

وعندما بلغت هذه النتيجة أدركت أنه من العبث السعي وراء جواب على سؤالي في المعرفة المبنية على العقل، ووثقت بأن الجواب الذي تقدمه مثل هذه المعرفة ليس إلا دليلاً واضحاً على أن الجواب مستحيل ما لم يوضع السؤال بطريقة أخرى تجعله شاملاً للعلاقة بين المحدود وغير المحدود. وأدركت أيضاً أن الأجوبة التي يقدمها الإيمان مهما خالفت أحكام العقل وتمردت على شرائعه، فهي تمتاز بأنها تقدم لكل سؤال العلاقة بين المحدود وغير المحدود، وبدون هذه العلاقة لا يمكننا الحصول على جواب ما.

فكيف وضعت السؤال: «كيف يجب أن أعيش؟» فالجواب عليه واحد: «بشريعة اللّه».

س: «وهل لي بعد حياتي شيء حقيقي ثابت؟ وما هو؟»

ج: «عذاب أبدي أو بركة أبدية».

س: «وهل لي في حياتي معنى لا يستطيع الموت أن يذهب به؟»

ج: «نعم، وهو الوحدة مع إله غير محدود في الفردوس».

على هذا المنوال وجدت نفسي محمولاً إلى التسليم بأن وراء المعرفة العقلية، التي كنت أعتقد أنها المعرفة الحقيقية الواحدة، وجد ويوجد في كل إنسان نوع آخر من المعرفة لا سلطان للعقل عليها، وهو الإيمان الذي يساعد الناس على الغبطة في الحياة.

ومع أنني ظللت أعتقد أن الإيمان بعيد عن أحكام العقل، فلم أجد بداً من التسليم بأن الإيمان وحده منح الإنسان جوابات معزية على مسائل الحياة، ومهد أمامه العقبات الحائلة دون سعادة حياته.

فالمعرفة المبنية على العقل أظهرت لي أن الحياة لا معنى لها، فاحتقرت حياتي، ووددت أن أقتل نفسي بيدي. بيد أنني كلما نظرت إلى جماهير الناس حواليَّ كنت أرى أنهم يعيشون فرحين بالحياة عارفين معانيها السامية. لأن الإيمان قد منحهم كما منحني قوة على إدراك معنى الحياة وحمل أثقالها بفرح وصبر.

وقد وجدت هذه الحقيقة نفسها في بلدان عديدة غير بلادي وبين أقوام كثيرين غير قومي من معاصري الأحياء والذين ماتوا قبلي. فقد كانت الحياة منذ وجدت على الأرض رفيقة للإيمان، الذي لا لذة فيها بدونه.

ومهما تعددت أنواع الأجوبة التي يقدمها الإيمان للإنسان فإن

كل واحد منها يجعل لحياة الإنسان المحدودة معنى غير محدود، معنى لا يزول ولا يفنى مهما اجتمع لمحاربته من جيوش الآلام والوحدة والموت. فبالإيمان إذن نستطيع أن نجد الحياة، وبه نفهم معانيها السامية. فما هو هذا الإيمان؟ ليس الإيمان كما فهمته بإعلان غير المنظورات فقط، ولا هو بالوحي الذي ينزل على قلوبنا فقط، لأن مثل هذا التحديد يظهر لنا شكلاً واحداً من أشكال الإيمان المتعددة، كلا ولا هو علاقة الإنسان باللّه فقط، (لأن الإيمان يجب أن يتحدد أولاً ثم اللّه) ولا هو الإذعان لما أخبر به الإنسان فقط، كما يعتقد الكثير من الناس، وإنما الإيمان الحقيقي الكامل هو معرفة معاني الحياة الإنسانية معرفة حقة تحمل الإنسان على محبة الحياة والمحافظة عليها. الإيمان هو وحده قوة الحياة.

فالرجل الحي يؤمن بشيء، وبغير الإيمان لا يستطيع بشر أن يعيش في العالم. لأن الذي لا يؤمن بأن في الوجود غاية يعيش لأجلها هو ميت بالحقيقة. فإذا لم ير ولم يفهم بطلان المحدود فهو يؤمن بغير المحدود. وإذا رأى بطلان المحدود وزواله فهو مضطر إلى الإيمان بغير المحدود في كل حال. فالحياة بغير الإيمان مستحيلة.

حينئذ رجعت إلى أفكاري القديمة أتأمل فيها مرتعداً خائفاً. فقد اتضح لي الآن أن على الراغب في الحياة إما أن يغمض عينيه عن غير المحدود، أو أن يقبل تفسيراً لمعنى الحياة يساوي بين المحدود وغير المحدود. وقد قبلت مثل هذا التفسير، ولكنني لم أكن في حاجة إليه بعد أن آمنت بالمحدود، ولذلك شرعت أطبق

تجارب العقل على تفسيري: وفي نور العقل رأيت أن جميع هذه التفاسير للحياة عقيمة وباطلة. ولكن الوقت الذي انقطعت فيه عن الإيمان بالمحدود مضى، وعبثاً حاولت في غضون ذلك أن أجد إيضاحاً لمعنى الحياة أبنيه على أساس العقل والمعرفة. وأما مصاحبتي لعظماء المفكرين، ودرسي لآراء نخبة الحكماء فلم يدنيني إلا من النتيجة القائلة إن ج تساوي ج. ومع أن هذه النتيجة لم تجد فائدة لحياتي فقد قبلتها معجباً بمقدرتي على الحصول على مثلها لإيضاح القضية التي شغلت فكري وحرمتني لذتي في حياتي.

ماذا فعلت عندما نشدت جواباً على قضيتي بدرس العلوم الطبيعية؟ رغبت في معرفة السبب الذي أعيش لأجله، ولذلك درست كل شيء ما خلا نفسي. ولا شك أنني تعلمت أموراً كثيرة بهذا الدرس، ولكنني لم أتعلم شيئاً مما كنت في حاجة إليه.

وماذا فعلت عندما نشدت الجواب في درس علم الفلسفة؟ درست أفكار الذين كانوا في نفس الحالة التي كنت فيها، يجهلون الجواب على السؤال «لماذا أعيش؟» وواضح أنه لم يكن لي أن أتعلم بهذه الطريقة إلا ما عرفته من قبل، وهو أنه يستحيل عليّ أن أعرف شيئاً.

من أنا؟ -جزء من غير المحدود. بهذه الكلمات سر القضية بكاملها.

وهل يمكن أن الإنسانية لم يخطر لها مثل هذا السؤال من قبل؟ أم هل يعقل أنه لم يتعرض أحد قبلي لمثل هذا السؤال البسيط الذي يخطر على بال كل ولد ذكي؟

كلا: فالإنسان منذ وُجد على الأرض وهو يسأل مثل هذا السؤال، وقد عرف الناس منذ أقدم الأزمنة أن الجواب على هذا السؤال سواء بُني على مقابلة المحدود بالمحدود أو غير المحدود بغير المحدود، قلّما يأتي بنتيجة. وما برح الإنسان منذ أبعد أزمنة التاريخ يدرس علاقة المحدود بغير المحدود ويوضحها ويفسرها.

وجميع الآراء المتعلقة بمساواة المحدود وغير المحدود، التي بواسطتها بلغت إلينا عقائدنا بالحياة، والخالق، والحرية، والصلاح، تخضعها للتحليل المنطقي. وهذه الآراء لا تقبل تجارب العقل المادية في تفسير غاية الحياة.

فإذا لم يكن المنظر راعباً، فإنه ولا شك يدعو إلى الضحك والسخرية أن نرى ذواتنا محمولين بعجبنا وغرورنا بمعرفتنا كالأولاد الصغار ندور ساعاتنا بأيدينا، ثم لا نلبث أن ننزع منها محركاتها لاعبين بها متعجبين كيف أنها لا تضبط الوقت.

إن التقرير في التناقض الكائن بين المحدود وغير المحدود، والجواب على السؤال المتعلق بغاية الحياة وحقيقتها بطريقة تدنينا من الحياة وتقرب الحياة منا، كل هذا ضروري بالغ الأهمية في حياتنا. والجواب الوحيد على هذا هو بالحقيقة موجود في كل مكان، وفي كل زمان بين جميع الأمم والشعوب، وقد وصل إلينا من أقدم الأزمنة التي لم يعرف الناس فيها شيئاً عن أصل الإنسان وهو صعب بهذا المقدار حتى أنه كان يتعذر علينا أن نصل إليه بأنفسنا، ولكننا بعد أن حصلنا عليه عدنا، بإهمالنا وعدم اكتراثنا فأعرضنا عنه بالشروع بمسائل لا فائدة منها تعرض لكل منا ولكن ليس بيننا من يعرف أن يجاوب عليها.

فالعقيدة القائلة بوجود إله غير محدود ونفس مقدسة خالدة، وطريقة معروفة لعلاقة المخلوق بالخالق، ووحدة الروح وحقيقتها، ورأي الإنسان في الخير والشر، كل هذه ميراث خالد لم تحصل عليه إلا بعد جهاد الإنسانية في سبيله أجيالاً عديدة. ومع أنه بغير هذا الميراث لا يمكن أن توجد حياة، وبدونه لا أستطيع أنا أن أوجد فإنني أنكره وأتمرد على عمل الإنسانية بأسرها، مغامراً في حل قضيتي بواسطة فكري وحده.

مثل هذه الأفكار لم تخطر لي في تلك الأيام كما أوضحتها الآن، ولكن جذورها كانت في فكري. فأدركت:

(1) أن المركز الذي اتخذناه أنا وشوبنهور وسليمان، بالرغم من كل حكمتنا، كان جنونياً محضاً. لأننا مع معرفتنا أن الحياة شر، لا نزال نتمسك بها. ويتضح جنون هذا الرأي مما يأتي: إذا كانت الحياة في عقيدتنا شراً وجنوناً فلماذا لا نقتل ذواتنا ونستريح من المرارة التي يحملها شر الحياة لأفكارنا؟

(2) وفهمت أيضاً أننا بجميع مباحثنا كنا ندور في دائرة واحدة. ندرس، ونبحث، ونفتش، وندقق، وأخيراً تأتي النتيجة ج تساوي ج. فسّر الماء بعد الجهد بالماء.

(3) بدأت أدرك أن الأجوبة التي يقدمها الإيمان تحتوي على أنقى ينابيع الحكمة البشرية، وأنه لا يجوز لي أن أرفضها لمجرد تمرد العقل عليها، فهي وحدها الكفيلة بحل قضية الحياة.

الفصل العاشر

قد فهمت كل هذا، ولكنه لم يساعدني على التخلص من شقائي.

فقد أصبحت مستعداً أن أقبل أي إيمان كان على شرط أن لا يطلب مني نكراناً ظاهراً لعقلي، لأن مثل هذا العمل يعرضني للكذب. فدرست البوذية والإسلام بكتبهما الأصلية، ودرست المسيحية بعناية خاصة، بكل ما كتب فيها وبحياة أساتذتها الذين كانوا حولي.

فوقف فكري وانتباهي أولاً على درس المؤمنين من أبناء بلادي المقربين مني، علماء الأرثوذكسية وعظماء المفكرين من رجال الدين والرهبان الشيوخ المؤمنين بأن الخلاص يتوقف على الإيمان بالفادي. فكنت أسعى إلى هؤلاء المؤمنين وأسألهم عن إيمانهم وعن عقائدهم في الحياة والغاية منها.

ومع أنني كنت أبذل كل جهدي لتجنب المناظرات والمجادلات معهم فإنني لم أستطع أن أعتنق إيمانهم. فقد رأيت أن الذين كانوا يطلقون عليه اسم الإيمان، لم يوضح لي معنى

الحياة، بل عمل بالأحرى على زيادة في ظلمتها، ورأيت أيضاً أنهم لم يبنوا إيمانهم على أساس المجاوبة على مسائل الحياة التي جذبتني محبة الاطلاع عليها إلى الإيمان بل كانت تحملهم على إيمانهم غايات أخرى لا شأن لي فيها.

وإنني لا أزال أذكر الرعب الذي استولى عليّ والآلام المريرة التي قاسيتها بعد أن فشلت في الاهتداء إلى ضالتي بين زعماء الإيمان الذين طالما عللت النفس بالخلاص عن يدهم، ولكنني لم أستفد شيئاً بل رجعت إلى هاوية يأسي الأول، أوفر شقاء وأكثر تعساً.

فكنت كلما بالغوا في بسط دقائق عقائدهم أمامي أشعر بملء الوضوح أنهم على ضلال، وأن عقائدهم كلها لا تستطيع أن توضح لي معنى الحياة.

ولم تكن ثورتي على ما أضافوه من الزوائد التافهة إلى العقيدة المسيحية البسيطة، العزيزة على قلبي دائماً، بالشيء المذكور تجاه دهشتي مما رأيته وعرفته أن حياتهم الشخصية لا تختلف عن حياتي إلا بأنهم يعيشون على خلاف ما يعلمون ويؤمنون. ولذلك ثبت لدي أنهم كانوا يخادعون ذواتهم، وأنه، لا لأمثالهم ولا لمثلي، من غاية في الحياة سوى التمتع بطيباتها، والاستسلام لرغابتها. رأيت هذا، واعتقدت به ثانية، لأنه لو كان الإيمان الذي يقول به هؤلاء قادراً على إزالة الخوف من الشيخوخة، والمرض، والموت، لما كانوا، وهم المؤمنون الحقيقيون في زعم أتباعهم يرتعدون خوفاً من الموت والمرض والشيخوخة ولكن المؤمنين

الذي عرفتهم في محيطي كانوا مثلي، يتنعمون بمعيشتهم، ويحافظون على ثروتهم، ويبالغون بالعمل على زيادتها، وتهلع قلوبهم من مجرد الافتكار في الشيخوخة، أو المرض، أو الموت. وفوق كل هذا كانوا مثلي، ومثل جميع البعيدين عن الإيمان، يستسلمون لشهوات الجسد، ويعيشون معيشة، إن لم تكن بآدابها أسقط من معيشة الكفار، فهي مثلها على الأقل.

لم تستطع المناظرات أن تقنعني بإخلاص هؤلاء المؤمنين في إيمانهم. فالأعمال وحدها التي بها يبرهن صاحبها على إيمانه بالحياة إيماناً يجعله يقضي قضاء مبرماً على الخوف من الفقر، والمرض، والموت، وهي التي كانت تستطيع أن تقنعني، ولكني لم أجد مثل هذه الأعمال بين جميع أنواع المؤمنين الذين عرفتهم إذّاك. والقليل منها الذي وجدته كان بين الكفرة أكثر منه بين المؤمنين.

حينئذ أدركت أن إيمان هؤلاء ليس بالإيمان الذي نشدته، بل هو شكل من الأشكال التي يلجأ إليها ذوو الشهوات في الحياة لتبرير ذواتهم تجاه الحياة. وفهمت جيداً أن هذا الإيمان، إذا لم يستطع أن يعزي صاحبه التعزية الكاملة فهو على الأقل قادر أن يهدئ من ثورة فكر كفكر سليمان وهو على فراش الموت. ولكن هذا لا يقدر أن يؤدي الخدمة اللازمة لأكثرية أبناء الإنسان، الذين لم يولدوا للتمتع بأتعاب العمال وأعراقهم، بل إنما ولدوا ليوجدوا حياة لأنفسهم بجدهم وتعبهم. فالإنسانية، لكي تعيش، وتواصل حياتها شاعرة بمعنى هذه الحياة، تحتاج إلى نوع آخر من الإيمان

أنقى وأصدق من الإيمان الذي عرفته. حينئذ لم يقنعني بوجود الإيمان مجرد أن سليمان وشوبنهور، وكل من وافقهما في آرائهما مثلي، لم يقتلوا ذواتهم، بل إنما أقنعتني الحقيقة الواضحة أن مئات الملايين من أبناء الإنسان قد درسوا سليمان وشوبنهور ومع ذلك عاشوا حياة سعيدة لا تعيبها شائبة ولا يزعجها شك أو تمرد.

وهكذا شعرت بقوة تدنيني من المؤمنين من طبقات الفقراء، والبسطاء، والجهلاء، والنساك، والرهبان، والفلاحين الساذجين. والعجيب أن أبناء الشعب هؤلاء كانوا يعتقدون بنفس العقيدة المسيحية التي كان أبناء طبقتي الشريفة يدّعون الانتماء إليها. ومع أن عقيدة هؤلاء الفقراء كان يمازجها الكثير من الخرافة والوهم، كما هو الحال مع عقيدة الأغنياء من رجال الدين والدنيا، فإن الفرق كان ظاهراً بين الفريقين ظهور الشمس. لأن مزج الخرافة بالعقيدة المسيحية لم يكن له أقل تأثير في حياة الأغنياء، بل كانت الغاية منه جعله خدعة وفخاً للبسطاء، أما مزج الخرافة بالعقيدة المسيحية في حياة العمال والفقراء فقد كان جزءاً ملازماً لهذه العقيدة ولم يكن من الممكن غرسها في أذهانهم وجعلها جزءاً من حياتهم بدونه. ولذلك كانت حياة المؤمنين، من أبناء طبقتنا الأغنياء والأشراف، مناقضة كل المناقضة لإيمانهم، في حين أن حياة المؤمنين، من الفقراء والعمال، كانت تحقيقاً ثابتاً لإيمانهم الصحيح الذي به وحده استطاعوا أن يدركوا معنى الحياة.

لأجل هذا شرعت للحال في درس العامة وعقائدهم، وكنت كلما تعمقت في درسي أزداد اقتناعاً بأن الإيمان الحقيقي كائن في

قلوبهم، وأنهم يعتقدون في أعماق نفوسهم، أن هذا الإيمان جزء مكمل لحياتهم، وبدونه لا يجدون من معنى لوجودهم على الأرض. فكان ما رأيته في عامة الشعب مناقضاً على خط مستقيم لما رأيته بين الخاصة من أبناء الأشراف والأغنياء، الذين كانت حياتهم بدون الإيمان سهلة جداً عليهم، ولم يكن بين كل ألف منهم مؤمن واحد، في حين أن الفقراء والعامة لم يكن بين الألف منهم رجل واحد غير مؤمن. وعلى العكس مما رأيت في طبقتنا، حيث تقضي الحياة بالكسل والملذات، والتمرد على الحياة، كنت أرى الأكثرية الساحقة من العمال تعيش مجتهدة، عاملة بغير انقطاع، فرحة بالحياة، راضية بقسمتها فيها. وعلى العكس مما رأيت في طبقتنا، رجالاً ونساءً متمردين، ثائرين مرتجفين أمام أوجاعهم وأمراضهم الكثيرة، رأيت بين العامة هدوءاً تجاه مصائب الحياة وأوجاعها، وهمومها، التي ينظر إليها الفقراء نظرتهم إلى حوادث لا بد منها، وهي في الغالب تعمل للخير. وعلى العكس من العقيدة الغالبة بيننا، القائلة إن الإنسان كلما قل عمله قلت معرفته لمعنى الحياة وتزايدت عماوته عن رؤية الحقيقة التي توضح له أن المرض، والموت، والشيخوخة، مساخر شريرة، على العكس من كل هذا، كنت أرى أولئك العمال الفقراء يعيشون، ويمرضون، ويموتون، من غير أن تفارقهم الثقة بحكمة الحياة، والابتسامة لا تنتزع منهم. ومع أن أبناء طبقتي أجمعت كلمتهم على أن الموت الذي يرافقه الصبر والهدوء، والفرح، والرجاء، ويبعد عنه التذمر، واليأس، نادر في العالم، فقد رأيت أن الموت الذي يرافقه التذمر واليأس لا أثر لوجوده بين الطبقات الفقيرة.

ومع أن هؤلاء الفقراء حرموا جميع الملذات التي تجعل الحياة ذات قيمة في نظر سليمان ونظرنا، فهم يعيشون في وسط سعادة لم يحلم بها سليمان في مجده، ولم يعرف مثلها أعظم عظماء الأرض. تأملت في كل من حولي من العامة، ودرست حياة جميع الذين عاصروني وماتوا قبلي من أبناء الشعب فرأيت أنه ليس فقط واحد أو اثنان أو ثلاثة منهم، بل مئات وألوف الملايين، قد فهموا معنى الحياة بطريقة مكنتهم من المعيشة بغبطة والموت بطمأنينة. جميع هؤلاء الألوف والملايين من أبناء الإنسان، المتفرقين بعضهم عن بعض بالأخلاق، والعادات، والتربية، والتعليم، والمراكز الاجتماعية، كانوا على عكس ما كنت، واقفين على معاني الحياة والموت، ولذلك اشتغلوا بهدوء، واحتملوا الفقر والمرض بصبر، وعاشوا، وماتوا، وكان كل ما رأوه في الحياة من عسل وحنظل حلواً صالحاً في عقيدتهم.

لأجل كل هذا أحببتهم، ودنوت منهم، ورغبت في الحياة معهم. وفي كل ساعة كان لي درس سعيد من حياتهم، حياة الأحياء منهم الذين عاشرتهم، والأموات الذين قرأت تراجمهم وأخبرت عن تصرفاتهم. ولذلك كنت أشعر بنمو محبتي لهم، وشديد رغبتي في اقتفاء خطواتهم والتخلق بأخلاقهم. على هذه الصورة عشت عامين كاملين سعيدين. وفي نهايتهما حصل تغيير كبير في حياتي، طالما تحفز للظهور، وكنت أشعر به ولا أدري كيف ومتى أظهره. وخلاصته أن حياة طبقتنا الغنية والمتعلمة أصبحت مكرهة في عيني، ولم يبق لها أقل معنى في عقيدتي.

فجميع أعمالنا، وأفكارنا، وعلومنا، وفنوننا، ظهرت لي بأشكال جديدة وصور جديدة. فأدركت أنها كلها لعبة صبي صغير لا معنى لها. وثبت لدي أن حياة العمال، وجميع أبناء الإنسانية المشتغلين بالإنتاج، والعاملين على البناء والتعمير، هي وحدها الحياة الحقيقية التي يجدر بي وبكل عاقل أن يسعى إليها. أجل، فقد أدركت جيداً أن معنى هذه هي الحياة الحقيقية، وأن المعنى الذي يجده أبناؤها فيها هو المعنى الحقيقي للحياة ولذلك قبلته بفرح عظيم.

الفصل الحادي عشر

عندما تذكرت ثورتي على هذه العقائد بعينها، وعدت بالفكر إلى النظرة الحقيرة التي نظرتها إليها عندما رأيت أن الذين يدّعون التمسك بها يعملون ما هو مخالف لها، وفكرت كيف أن هذه العقائد نفسها قد جذبت قلبي إليها، وظهرت لي كاملة صحيحة عندما درست حياة العائشين على وفقها، حينئذ أدركت في أعماق قلبي لماذا رفضتها وحسبتها بدون معنى في ما مضى من عمري، ولماذا اعتنقتها فيما بعد وعرفت أنها ممتلئة بالمعاني السامية. قد فهمت أنني أخطأت وأدركت ما هو خطأي. فلم يكن خطأي منحصراً في فساد تفكيري فقط، بل إنما كان بالأحرى في فساد حياتي. ولذلك أدركت أن الحقيقة، لم تحجب وجهها عني لمجرد غلطي في التأمل والتفكير فقط، ولكنها حجبت عني من أجل معيشتي الشاذة، واستسلامي لشهواتي الجامحة ورغباتي الثائرة. وأدركت أيضاً أن سؤالي: «ما هي حياتي؟» والجواب «هي شر»، كانا منطبقين كل الانطباق على الواقع. ولكن الخطأ نتج عن رغبتي في تطبيق هذا الجواب، الذي يتناول حياتي وحدها على الحياة عامة. فقد سألت: «ما هي حياتي الخصوصية؟» فكان الجواب

بحق: «هي شر وضلال». وهو بالحقيقة جواب صحيح. لأن حياتي في ذلك الحين الحياة الممتلئة بالإثم والمعصية، كانت بالحقيقة شراً وضلالاً. فالجواب القائل: «إن الحياة شر لا معنى له» كان منطبقاً على حياتي الشخصية إذّاك، وليس على الحياة بوجه عام.

حينئذ أدركت الحقيقة التي وجدتها فيما بعد في الإنجيل: «إن الناس أحبوا الظلمة دون النور، لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن كل من يصنع الشر يبغض النور، ولا يأتي إلى النور، لئلا توبخ أعماله».

فرأيت بوضوح أن على الراغب في إدراك معنى الحياة أن يعيش هو نفسه أولاً حياة بعيدة عن الشر ممتلئة بالمعاني الصالحة، وحينئذ تستنير بصيرته فيرى المعنى الحقيقي لحياته. وفهمت أخيراً لماذا كنت أدور حول هذه الحقيقة البسيطة زمناً طويلاً من غير أن أراها، وأدركت أن الذي يتكلم عن الحياة، يجب أن ينظر إليها نظرة عامة، ولا يقصر نظره على حشرات دنيئة عليها.

هذه حقيقة كانت، وما برحت، حقيقة كما أن 2 في 2 يساوي 4 ولكنني لم أقبلها لأنه كان يجدر بي فوق اعترافي بأن 2 في 2 يساوي أربعة أن أعترف أنني رجل شرير. فقد كنت أرى أن اعتقادي بصلاحي أصدق في عقيدتي من التسليم بأن 2 في 2 يساوي أربعة ولأجل هذا أحببت الصالحين، وأبغضت نفسي، وقبلت الحق وها قد أصبح كل شيء واضحاً في عيني.

فإذا سأل اليوم الذي ينفذ أحكام القتل، ويقضي حياته بتعذيب

الناس وقطع رؤوسهم، أو إذا سأل سكير فاسق، أو مجنون معتوه قضى عمره في غرفة مظلمة، وهو على كره لسجنه القاتم يعتقد أنه يموت إذا خرج منه، إذا سأل اليوم كل واحد من هؤلاء نفسه السؤال: «ما هي الحياة؟» فإنه لا يجد سوى جواب واحد خلاصته أن الحياة شر وحماقة، ومثل هذا الجواب يكون حقيقياً، ولكن في ما يخص حياة الذي يسأله دون غيره من الناس. فهل كنت أنا والحالة هذه مجنوناً بهذا المقدار؟ هل كنا بأجمعنا نحن الأغنياء والأذكياء والكسالى في هذه الدرجة من الجنون المطبق. . . ؟

قد أدركت أخيراً أننا كنا أكثر من هذا جميعنا، أو أنني على الأقل، أنا وحدي، كنت مجنوناً. فالطير في عقيدتي قد خلق بطريقة ملائمة للطيران والتقاط طعامه وبناء عشه، وكلما رأيته يقوم بعمله أفرح لفرحه. والماعز والأرنب والذئب كلها خلقت بطريقة عجيبة تمكنها من نيل طعامها، والمحافظة على جنسها، وتربية صغارها، وهي إذ تقوم بأعمالها سعيدة في عقيدتي، وحياتها منطبقة كل الانطباق على العقل.

فماذا يجب على الإنسان أن يعمله إذن؟ فهو كالحيوان يجب أن يحصل على معاشه، ولكن بطريقة تختلف عن الطريقة التي يكسب بها الحيوان معاشه. فالحيوان يسعى منفرداً ويعيش، ولكن الإنسان الذي يحصر كل جهوده بنفسه لا نجاح له. ولذلك وجب عليه أن يشتغل للإنسانية قاطبة، والإنسانية لا تحرمه من ثمرة عمله. فإذا قام بمثل هذا العمل فأنا واثق بسعادته، وبأن حياته تكون منطبقة على العقل.

فماذا فعلت أنا في الثلاثين سنة الماضية من حياتي الناضجة؟ إنني لم أقتصر على عدم مساعدة حياة غيري، ولكنني لم أصنع شيئاً حسناً لنفسي فقد عشت معيشة حشرة قذرة، وعندما سألت نفسي لماذا عشت في الوجود، حصلت في الحال على الجواب المصيب: «ليس من سبب واحد لمعيشتك» فإذا كان معنى حياة الإنسان منحصراً في قيامه بأعمال حياته لنفسه، فكيف كان من الممكن أني أنا الذي قضيت ثلاثين عاماً من عمري، أبذل جهودي للقضاء على حياتي وحياة الآخرين، يجب أن أسمع جواباً غير هذا الجواب: إن حياتي شر وضلال عظيم؟

نعم كانت حياتي شراً وضلالاً.

إن في الوجود إرادة كلية تدير كل من فيه من الكائنات. وهذه الإرادة الكلية لا عمل لها سوى العناية بحياتنا وبحياة الوجود الذي نعيش فيه. ولكي نرجو إدراك غاية هذه الإرادة يجب علينا قبل كل شيء، أن نعمل الواجبات المفروضة علينا. فإذا لم أقم أنا بقسطي من الواجب في الوجود، فإنني لن أعرف شيئاً عن هذه الإرادة، ولا عن الوجود الذي أنا جزء منه.

إذا حمل متسول فقير، عاري الجسد، من مفارق الطرق إلى مسكن فسيح الأرجاء، وهنالك أمر به أن يلبس، ويطعم، ويعمل في تحريك يد مضخة ماء، فالأمر واضح أن المتسول، قبل أن يفتش عن السبب الذي حمل صاحب المنزل أن ينقله إلى بيته ويأمره بتحريك يد مضخة الماء، وقبل أن يفكر في ما إذا كانت النظم والترتيبات التي في المنزل معقولة أم لا، يجب عليه أن

يحرك يد المضخة. وهو إذ يحرك هذه اليد يجد أن حركته، بواسطة المضخة الداخلية، تخرج الماء من قلب الأرض وتروي سطحها فيأتي بالثمار الشهية. وبعد أن يظهر براعة في حركة يد المضخة، ينقلونه إلى عمل آخر مثل جمع الأثمار، والعناية بالأشجار، وهكذا يجد بتنقله في أعمال الدار التي هو فيها، النظام الموضوع لتلك الدار، وينال قسطه منها بملء السهولة، بواسطة العمل، الذي لو لم يعتصم به، بل اقتصر على الكلام والسؤال، لما كان له شيء.

وهكذا الحال مع الذين يصنعون مشيئة سيدهم. فهم يقومون بأعمالهم فرحين شاكرين لا يعرف التذمر سبيله إلى قلوبهم. أما نحن الذين يدّعون العلم، والحكمة، والفهم، فإننا نأكل خيرات رب البيت ولا نريد أن نقوم بالعمل الذي يفرضه علينا. ولا نكتفي بهذا فقط، بل نجلس على كراسي العاملين الصادقين ونشرع في البحث والجدال: لماذا يجب أن نحرك يد المضخة؟ مدّعين أن مثل هذا العمل بليد لا يليق بنا. وبعد أن نفكر في كل هذا، ونفرغ من مباحثنا، ماذا تكون النتيجة؟ نقول إن رب البيت نفسه بليد أيضاً، أو إنه غير موجود، وإننا نحن وحدنا حكماء ولكننا نشعر أننا لا نصلح لشيء، وأن حياتنا كلها لا معنى لها، ولذلك يجب أن نضع لها حداً بالانتحار!

الفصل الثاني عشر

إن اقتناعي بخطأ المعرفة المبنية على العقل وحده، قد ساعدني على تحرير نفسي من التفكير العقيم. والحقيقة الجديدة التي أظهرت لي أن معرفة الحق لا يمكن أن يحصل عليها إلا الذي يتمتع بالحياة الحق، قد قادتني أخيراً إلى الشك في عدالة حياتي، ولذلك رأيت من الواجب عليَّ أن أخرج من دائرتي الضيقة، وأتأمل في ما حواليَّ ملاحظاً حياة العمال الحقيقيين، ومتعلماً أن هذه الحياة البسيطة هي الحياة الحقيقية بعينها. فأدركت إذّاك أنني إذا شئت أن أفهم الحياة، وأقف على معناها، يجب عليَّ أن لا أعيش حياة حشرة عالقة على جسم غيرها، بل حياة مثمرة بالعمل الصالح لها وللعالم أجمع، متقبلاً المعنى الذي يمنحه للحياة جماهير العاملين الأمناء، الذين يؤلفون صرح الإنسانية الكاملة.

وإنني أستطيع أن ألخص مركزي آنئذ بما يأتي:

في أثناء تلك السنة، التي فكرت فيها بما سبقت فوصفته في الفصول السابقة، كنت أسأل نفسي في كل دقيقة، إذا كان الأفضل لي أن أقتل ذاتي أم لا. وأفكر بغير انقطاع في الحياة وما أشكل

عليَّ من أسرارها. ولكن قلبي كان يتألم، وفي أعماقه شعور مذيب لا أستطيع أن أصفه إلا بأنه عاطفة خفية كانت تدفع بي إلى التفتيش عن اللّه.

وهذا التفتيش عن اللّه ليس من نتاج فكري، بل إنما كان شعوراً في قلبي. وأنا أقول هذا بملء الثقة، لأن فكري لم يكن راضياً عن مثل هذا الشعور النامي في قلبي. وقد كان هذا الشعور أشبه بما يختلج في قلب اليتيم، أو الضائع في مجاهل لا يعرف عنها شيئاً، وهو يرجو مساعدة، ولكنه لا يعرف ممّن سيحصل عليها.

ومع أنني كنت واثقاً بأن البرهان على وجود اللّه مستحيل عليّ لأن «كَنْت» الفيلسوف أظهر لي هذا، وأنا قبلته وتمسكت به. فقد ظللت أسعى وأفتش عن إله، وأؤمل بالبلوغ إلى ضالتي، وكنتُ في كل أيام شكوكي، عملاً بعادة قديمة أخاطب هذا الإله بصلاتي من غير أن أجده.

ففي بعض المرات كنت أراجع مباحث كَنْت وشوبنهور في أن البرهان على وجود اللّه مستحيل، وأقبلها باقتناع، ثم لا ألبث أن أثور عليها في أوقات أخرى، وأفندها وأظهر خطأها وضلالها.

فكنت أقول في نفسي، إن التعليل لا يمكن أن يقيد بقيود الفكر كالزمان والمكان. فإذا كنت أنا موجوداً فلا بد من علة لوجودي وهذه علة جميع العلل. وعلة جميع العلل هذه هي ما نسمّيه اللّه وقد لزمني هذا الفكر أو الشعور حتى كنت أبذل كل ما في قوتي للبلوغ إلى الشعور بوجود هذه العلة.

وعندما شعرت بوجود مثل هذه القوة، التي هي أسمى مني، أدركت للحال أن حياتي مستحيلة كما خيّل إليّ من قبل. حينئذ سألت نفسي قائلاً:

«ما هي هذه العلة أو القوة؟ كيف يجب أن أفكر فيها؟ وما هي العلاقة التي بيني وبين ما أسمّيه اللّه؟»

ولكنني لم أجد لهذه الأسئلة غير الجواب القديم المعروف: «هو خالق بارئ كل الكائنات».

ولكن هذا الجواب لم يقنعني. فشعرت أن قوة الحياة الضرورية ما برحت تعوزني، فعاودتني مخاوفي وشكوكي، وشرعت في الحال أصلّي إلى الإله، الذي كنت أفتش عنه، ليساعدني وينقذني من يأسي. بيد أن إفراطي في الصلاة لم يزدني إلا ثقة بأن صلواتي لم يسمعها أحد، وبأنه لا يوجد أحد يستطيع الإنسان أن يلجأ إليه في عهد محنته. لأجل ذلك صرخت واليأس يملأ قلبي، لعدم مقدرتي على الاهتداء إلى الإله الذي فتشت عنه قائلاً:

«يا رب ارحمني وخلصني. أيها الرب إلهي علمني».

ولكن لم يرحمني أحد، ولذلك شعرت أن حياتي قد دنت نهايتها.

بيد أنني لم ألبث أن رجعت مثنى وثلاث ورباع إلى موضعي القديم، ولكن من جهات متعددة، مفكراً في ذاتي وقائلاً: إنه يستحيل أن أوجد على هذه الأرض بدون غاية معينة لوجودي، أو معنى مخصوص لحياتي، ولا يمكن البتة أن أكون (كما كان يخطر

لي بعض المرات) فرخاً صغيراً، سقط من عشه صدفة على الأرض. وما الذي يحملني على الصراخ، كما يفعل فرخ الطير بعد أن يقع على ظهره على عشب الحقل؟ أليس هذا دليلاً على أن هنالك أماً ولدتني، واعتنت بتربيتي وأطعمتني، وأحبتني؟ ولكن أين هي؟ أين تلك الأم؟ وإذا كنت قد رميت من عشي، فمن رماني؟ إنني لا أستطيع أن أتعامى عن رؤية هذه الحقيقة: وهي أن كائناً أحبني وكان السبب في وجودي. فمن هو هذا الكائن؟ هو - ولا شك - اللّه. وهو يعرف عن تفتيشي، ويرى سعيي، ويأسي، وجهادي. فقلت لنفسي: «هو موجود بالحقيقة». وكنت في كل لحظة، أعترف فيها بوجوده، أشعر بأن حياتي تجددت، وإيماني بما في الوجود من اللذة والبهجة قد نهض من رمسه.

وقد فارقتني هذه القناعة بوجود اللّه، إلى درس علاقتنا معه، فعرض أمامي الإله المثلث الأقانيم، خالقنا، الذي أرسل ابنه فادياً لخطايانا. حينئذ رأيت هذا الإله، المنفصل عني وعن العالم، يذوب كالجليد من أمام عيني، فلم يبق لوجوده أثر في ذهني، ولذلك نضب ينبوع الحياة الذي رأيته هنيهة وكنت أعلل النفس بأن أروي ظمأ يأسي من مائه النمير. فسقطت ثانية في هوة اليأس، وشعرت بأنه لم يبق لي سوى العزم على قتل نفسي. ولكن هنالك شعوراً آخر أردأ من هذا لزمني: وهو أنني يجب ألا أفكر بالإقدام على مثل هذا العمل الفظيع أبداً.

لا أقول مثنى، وثلاث، بل عشرات ومئات المرات، كانت تنازعني هذه الأفكار المتناقضة، فتارة أؤمن وأشعر بحلاوة الحياة،

وطوراً يفارقني إيماني ويحل مكانه الشكوك والشعور بشر الحياة وبطلانها.

أذكر أنني كنت مرة في أحد أيام الربيع الجميلة، منفرداً في غابة أصغي إلى حفيف الأشجار، وأفكر في أمر واحد طالما كان شغلي الشاغل مدة عامين كاملين، - وهو وجود اللّه.

فقلت في نفسي: «حسن وجميل ليس إله. وليس من شيء في الوجود سوى شعوري. ولا يوجد في العالم شيء ذو وجود حقيقي إلا حياتي، ولا يوجد شيء من ذلك البتة. وما من قوة أو أعجوبة تستطيع أن تبرهن وجود شيء من هذا، لأن العجائب لا وجود لها إلا في خيال السقيمي العقول».

ثم سألت نفسي ثانية: «ولكن من أين لي هذا الشعور الذي يعمل في قلبي ويحملني على التفتيش عن اللّه؟»

قد جدَّد هذا الفكر الأخير ما مات من إيماني، وبدَّد غيوم اليأس من سماء حياتي، فشعرت ثانية ببهجة الحياة. ولكن هذه البهجة لم تلبث أن زالت في وقت قصير. لأن فكري عاد إلى عمله يسائلني قائلاً:

«إن هذا الشعور، الذي يحملك على التفتيش عن اللّه ليس بإله. لأن مثل هذا الشعور يختلج في أعماقي، وهو تحت سلطاني فأنا أظهره، وأنا أحجبه كما أشاء وأهوى. فهو ليس بالضالة التي أنشدها، الضالة التي لا أقدر أن أوجد بدونها».

وهكذا ذوت الآمال الجديدة في صدري، وحلّت في مكانها الشكوك والمخاوف، فعاودني فكر الانتحار بقوة أشد من قبل.

فرجعت إلى ما مضى من أفكاري، أفحصها وأقلبها، وأدرس التقلبات التي طرأت على حياتي بين اليأس والرجاء فأدركت بعد الفحص، أنني لم أعش في ما مضى من عمري إلا عندما كنت أؤمن باللّه. وكما كانت حالتي في الماضي هي الآن: كلما آمنتُ باللّه أشعر بالحياة، وكلما أعرضتُ عن هذا الإيمان أشعر أنني ميت بالحقيقة.

فما هو هذا اليأس وهذا الرجاء بأنني لا أعيش عندما أخسر إيماني بوجود اللّه؟ ولو لم يكن في أعماقي بقية رجاء بالاهتداء إليه، لكان يجب أن أقتل نفسي من عهد بعيد فحياتي الحقيقية الحالة هذه، مرتبطة بشعوري بوجوده، وسعيي وراء الاهتداء إليه. فما يجب أن أفعله إذن؟ ولكن صوتاً قوياً كان يصرخ في أعماقي قائلاً: «إن ما تنشده هو الكائن الذي لا قوام للحياة بدونه. فالحياة ومعرفة اللّه واحد عند التحقيق. واللّه هو الحياة».

عش لتسعى إلى اللّه، لأن الحياة لا تكون بدون اللّه. بمثل هذا آمنتُ أخيراً من أعماق قلبي، فشعرتُ بقوة الحياة الحقيقية، ولم يفارقني هذا النور الذي أشرق على حياتي حتى اليوم.

هكذا تخلصتُ من الانتحار. ولكنني لم أعرف متى، ولا كيف تم هذا التغيير العظيم في حياتي. فكما أنني شعرت بيأسي شيئاً فشيئاً، وتدرجت من الشك البسيط، إلى الكفر بالحياة والاعتقاد بوجوب الانتحار، هكذا عاد نور الحياة إليّ شيئاً فشيئاً بقوة ليست من عندي، فأنعش قلبي وأحيى ميت آمالي.

والعجب أن قوة الحياة هذه، التي رجعت إليّ، لم تكن غريبة

عني. لأني عرفتها في فجر شبابي، وكان لها النفوذ الأول في حياتي.

فرجعت بالفكر إلى الماضي البعيد، إلى أيام صبوتي وشبابي. رجعت إلى الإيمان بتلك الإرادة التي أوجدتني في هذا الوجود وطلبت مني أن أقوم بعمل ما. رجعت إلى الاعتقاد بأن واجب الحياة، وغايتها الأولى، إنما تقوم بسعي الإنسان ليصير أفضل مما هو ويعمل ما هو عدل في شريعة هذه الإرادة الكلية التي أوجدته. رجعت إلى العقيدة القائلة بأن هذه الإرادة لا تظهر إلا في الصلاح الذي أجمعت الإنسانية على محبته والاهتداء به. أو بعبارة أخرى، رجعت إلى الإيمان باللّه، وبالكمال الأدبي، وبالتقليد الذي يمنح الحياة معناها الحقيقي. وإنما الفرق بين حالتي الآن، وحالتي إذّاك، أنني في عهد صبوتي، قبلت كل هذا بدون فهم، ولكني أقبله الآن عن إدراك صحيح، وعقيدة ثابتة بأني لا أستطيع أن أعيش بدونه.

وإنني لا أجد للتعبير عن حالتي أفضل مما يأتي: قد شعرت بأنني وجدت نفسي فجأة في مركب، دُفع إلى عرض البحر، من شاطئ مجهول لديّ، بعد أن أعطيت التعليمات اللازمة للبلوغ للشاطئ الآخر، ووضع بين يدي العدد الكافي من المجاذيف التي مع أنني لم أتعلم كيفية استعمالها كنت أجذف بها بكل قدرتي ولكنني كنت كلما أمعنت في السير إلى قلب البحر، ازداد طغيان الأمواج عليّ وقذفها بي خارج الخط المرسوم لسيري، وقل اجتماعي بأمثالي من البحار، الذين أبعدتهم الأمواج عن الخطوط

المرسومة لسيرهم مثلي. هنالك كنت أجد، في جهات مختلفة، بحارة يعملون بجد واجتهاد في محاربة البحر، والتغلب على أمواجه بهمة لا تعرف الملل، لمتابعة سيرهم، والبلوغ إلى محجتهم، كما كنت أجد أيضاً آخرين غيرهم ممن استولى عليهم اليأس فخارت قواهم، ورموا مجاذيفهم، واستسلموا للأمواج تسير بهم حيث شاءت. وكلما أبعدت في سيري، كنت أشتغل بمراقبة ما يجري حواليَّ فأنسى المحافظة على الخطة المرسومة لي. وأخيراً مللت التجذيف، وضللت عن الخط المختص بي، فرميت مجاذيفي. وكنت في أثناء ذلك أصغي إلى أحاديث السائرين حولي، ممن أقلعوا عن التجذيف يؤكدون لي أنني وإياهم نسير في السراط المستقيم. وهكذا سرت، محمولاً مع الأمواج، إلى أن بلغت مكاناً أحاط بي اليأس فيه من كل جهة، وتعالت المياه حواليَّ حتى خيّل إليّ أني سائر إلى حتفي لا محالة. حينئذ تذكرت المجاذيف، وتذكرت الخط المرسوم لسيري، والشاطئ الذي أمرت أن أذهب إليه فعمدت إلى مجاذيفي أحركها بهمة ونشاط، سائراً في الخط المرسوم لي نحو الشاطئ.

فالشاطئ الذي سرت إليه هو اللّه والخط الذي تبعته هو التقليد، والمجاذيف هي حرية الإرادة التي أعطيتها لتسير بي إلى الميناء الهادي، حيث أجد وحدتي مع اللّه.

الفصل الثالث عشر

وهكذا تجددت القوة في أعماقي، فبدأت أعيش من جديد. فأنكرت على أبناء طبقتي حياتهم، لأنني أدركت أنها ليست بالحياة الحق، ولكنها خيال للحياة، لأن ما فيها من الانغماس في حمأة التنعم يحول دون إدراك معنى الحياة. وشعرت في أعماق قلبي، أنني لكي أفهم معنى الحياة الحقيقي، لا يكفيني درس حياة الطبقات الممتازة التي هي أشبه بالحشرات العائشة على أجسام غيرها، بل يجب أن أدرس حياة طبقات العمال البسيطة، الحياة التي تصنع حياة للعالم وتهبها معنى سامياً مقبولاً من عامة الشعب. والعمال البسطاء الذين كانوا حولي هم الشعب الروسي، الذي رجعت إليه أنشد معنى الحياة بين صفوفه.

وإذا كان في منالي أن أعبّر عن هذا المعنى فهو كما يأتي:

ولد الإنسان في هذا العالم بإرادة اللّه الذي خلق كل إنسان بصورة حرة تمكنه أن يخلص نفسه أو يهلكها كما يشاء ويريد. والغاية الأولى من وجود حياة الإنسان منحصرة في خلاص نفسه، وهو لا يستطيع أن يخلص نفسه إلا بالعمل بكلمة اللّه. والعمل

بكلمة اللّه يقضي عليه أن يعرض عن جميع ملذات الحياة، ويعمل بنشاط، ويتضع، ويحتمل، ويكون وديعاً بروحه وفكره. هذا هو معنى نظام الإيمان بكامله في عقيدة الشعب، وقد قبله الشعب عن يد رعاة الكنيسة، الذين احتفظوا به على مرّ الأجيال بواسطة التقاليد المحترمة من جميعهم.

وقد كان هذا المعنى واضحاً لي، عزيزاً على قلبي. وهذا الإيمان العام، الثابت في قلوب الجماعات التي التجأت إليها أخيراً، كانت تقيده لسوء الحظ، قيوداً بعيدة عن الإدراك والتفسير بهذا المقدار حتى أنها أرجعت الثورة والتمرد إلى قلبي: وهي الأسرار والفروض الكنائسية، والصيام، والسجود أمام الرفات المقدسة والصور المختلفة. فالشعب الساذج لم يكن قادراً أن يفصل بين هذه الفروض والإيمان، وأنا صرت مثله عاجزاً عن الإقدام على مثل هذا الفعل. ومع أن إيمان الشعب البسيط، كان يمازجه أشياء كثيرة غريبة على إدراكي وفهمي، فإني كنت أقبل كل شيء، فأذهب إلى جميع الاحتفالات الكنائسية، وأصلّي في الصباح وفي المساء وأصوم، وأعد نفسي، بالتقشف والإمساك، لمناولة الأسرار الإلهية، والعجيب أنني لم أجد من عقلي معارضاً تجاه قيامي بجميع هذه الفروض، فما كان يبدو لي في ما مضى مستحيلاً صار أمراً بسيطاً ممكناً.

إن المركز الذي اتخذته لنفسي في الماضي تجاه قضايا الإيمان قد تغير بكامله. فقد اعتقدت قبلاً أن الحياة ممتلئة بالمعاني السامية، أما الإيمان فكان يظهر لي أنه ادعاء فارغ للتوفيق بين

قضايا متعددة لا شأن للحياة بها. وقد جربت مرة أن أجد لهذه القضايا معنى فلم أفلح، ولذلك تركتها وأعرضت عنها. أما الآن فأنا واثق بأن حياتي لا معنى لها البتة، ولا يمكن أن يكون لها معنى بذاته، ولكن قضايا الإيمان التي لم يكن لها أهمية في نظري قبلاً قد أظهر لي الاختبار أنها، دون غيرها، القوى الحقيقية في الوجود التي تمنح الحياة معناها الأسمى. كنت أعتقد قبلاً أن هذه القضايا جميعاً تافهة، بليدة، لم تخلق إلا للبسطاء والجهلاء، أما اليوم، فمع أنني لا أدرك معناها، فأنا أعتقد أنها ذات معنى عظيم يجب أن أسعى إلى درسه وفهمه.

لأجل ذلك كنت أفكر قائلاً:

«إن الإيمان ينبع، كالإنسان وفكره، من العلة السرية الأولى. وهذه العلة الأولى هي اللّه، علة وجود الإنسان وعقله. وكما أن جسدي انبثق، بالتسلسل المتواصل من اللّه إليّ، كذلك عقلي واعتقادي بالحياة خرجا منه تعالى، ولأجل هذا فإن درجات هذا النمو التدريجي، الذي أنا ثمرته الأخيرة، لا يمكن أن تكون كاذبة. كل ما يؤمن به الإنسان بإخلاص يجب أن يكون حقيقياً. ومع أننا نستطيع أن نعبّر عنه بطرائق مختلفة، فهو واحد في جميع الحالات، ولا يمكن أن يكون كاذباً. فإذا خيل إليَّ في بعض الأحيان أنه غير ذلك، فلا يكون هذا بالدليل على كذبه، بل هو أصدق برهان على ضعف إدراكي لحقيقته».

حينئذ قلت لنفسي:

«ينحصر الواجب الأول، لكل إيمان صحيح، في أن يهب

الحياة معنى لا يستطيع الموت أن يذهب به. وإنه لطبيعي أن الإيمان لكي يجاوب على سؤال الملك المحتضر في قصره بين الثروة والعظمة أو العامل المستعبَد الفقير، أو الطفل الذي لا يعرف كيف يفكر أو الحكيم الطاعن في السن، أو الشيخ الذكي، أو المرأة السعيدة الممتلئة بأهواء الشباب، أو جميع أبناء الإنسان على اختلاف مراكزهم وإدراكهم، - إنه لأمر طبيعي وبسيط، إذا كان هنالك جواب واحد في قاموس الإيمان على السؤال الأبدي الواحد المتكرر في كل يوم بأفواه جميع الناس: «لماذا أعيش؟ وما هو مصير حياتي؟» فالجواب، وإن كان واحداً بجوهره وحقيقته، فإنه يتنوع بمظاهره تنوعاً لا حدّ له وهذا التنوع، وإن ظهر غريباً، فهو ضروري، بالنسبة إلى حالة كل رجل وكل امرأة أمام الشمس من الذين تهمّهم معرفة مصيرهم ومعنى حياتهم».

ولكن هذه التأملات والأفكار، التي تبرر غرابة ما في الإيمان من المظاهر الطفلية، لم تكن كافية لإقناعي على أن لي الحق في قضية كقضايا الإيمان التي أصبحت شغلي الشاغل في الحياة، أن أتخذ لنفسي صفة عاملة في موضوع لا تزال شكوكي كثيرة أمامه. فقد رغبت، بجماع قوة نفسي، أن أتحد مع الشعب، مؤمناً بكل ما يؤمنون به، ولكنني لم أجد سبيلي إلى ذلك. لأنني شعرت أن قيامي بمثل هذا العمل يحملني على الكذب على نفسي، والهزء بما كنت أقدسه وأجلّه.

عند هذه النقطة الهامة من الموضوع أقبل إلى مساعدتي أحداث المفكرين من اللاهوتيين الروس.

قضايا متعددة لا شأن للحياة بها. وقد جربت مرة أن أجد لهذه القضايا معنى فلم أفلح، ولذلك تركتها وأعرضت عنها. أما الآن فأنا واثق بأن حياتي لا معنى لها البتة، ولا يمكن أن يكون لها معنى بذاته، ولكن قضايا الإيمان التي لم يكن لها أهمية في نظري قبلاً قد أظهر لي الاختبار أنها، دون غيرها، القوى الحقيقية في الوجود التي تمنح الحياة معناها الأسمى. كنت أعتقد قبلاً أن هذه القضايا جميعاً تافهة، بليدة، لم تخلق إلا للبسطاء والجهلاء، أما اليوم، فمع أنني لا أدرك معناها، فأنا أعتقد أنها ذات معنى عظيم يجب أن أسعى إلى درسه وفهمه.

لأجل ذلك كنت أفكر قائلاً:

«إن الإيمان ينبع، كالإنسان وفكره، من العلة السرية الأولى. وهذه العلة الأولى هي اللّه، علة وجود الإنسان وعقله. وكما أن جسدي انبثق، بالتسلسل المتواصل من اللّه إليّ، كذلك عقلي واعتقادي بالحياة خرجا منه تعالى، ولأجل هذا فإن درجات هذا النمو التدريجي، الذي أنا ثمرته الأخيرة، لا يمكن أن تكون كاذبة. كل ما يؤمن به الإنسان بإخلاص يجب أن يكون حقيقياً. ومع أننا نستطيع أن نعبّر عنه بطرائق مختلفة، فهو واحد في جميع الحالات، ولا يمكن أن يكون كاذباً. فإذا خيل إليَّ في بعض الأحيان أنه غير ذلك، فلا يكون هذا بالدليل على كذبه، بل هو أصدق برهان على ضعف إدراكي لحقيقته».

حينئذ قلت لنفسي:

«ينحصر الواجب الأول، لكل إيمان صحيح، في أن يهب

الحياة معنى لا يستطيع الموت أن يذهب به. وإنه لطبيعي أن الإيمان لكي يجاوب على سؤال الملك المحتضر في قصره بين الثروة والعظمة أو العامل المستعبَد الفقير، أو الطفل الذي لا يعرف كيف يفكر أو الحكيم الطاعن في السن، أو الشيخ الذكي، أو المرأة السعيدة الممتلئة بأهواء الشباب، أو جميع أبناء الإنسان على اختلاف مراكزهم وإدراكهم، - إنه لأمر طبيعي وبسيط، إذا كان هنالك جواب واحد في قاموس الإيمان على السؤال الأبدي الواحد المتكرر في كل يوم بأفواه جميع الناس: «لماذا أعيش؟ وما هو مصير حياتي؟» فالجواب، وإن كان واحداً بجوهره وحقيقته، فإنه يتنوع بمظاهره تنوعاً لا حدّ له وهذا التنوع، وإن ظهر غريباً، فهو ضروري، بالنسبة إلى حالة كل رجل وكل امرأة أمام الشمس من الذين تهمّهم معرفة مصيرهم ومعنى حياتهم».

ولكن هذه التأملات والأفكار، التي تبرر غرابة ما في الإيمان من المظاهر الطفلية، لم تكن كافية لإقناعي على أن لي الحق في قضية كقضايا الإيمان التي أصبحت شغلي الشاغل في الحياة، أن أتخذ لنفسي صفة عاملة في موضوع لا تزال شكوكي كثيرة أمامه. فقد رغبت، بجماع قوة نفسي، أن أتحد مع الشعب، مؤمناً بكل ما يؤمنون به، ولكنني لم أجد سبيلي إلى ذلك. لأنني شعرت أن قيامي بمثل هذا العمل يحملني على الكذب على نفسي، والهزء بما كنت أقدسه وأجلّه.

عند هذه النقطة الهامة من الموضوع أقبل إلى مساعدتي أحداث المفكرين من اللاهوتيين الروس.

وفي رأي هؤلاء العلماء المحترمين أن عقيدة الإيمان الأساسية تنحصر في عصمة الكنيسة. وقبول هذه العقيدة يؤدي بصاحبه إلى التسليم بصواب جميع التعاليم التي تعلمها الكنيسة. فالكنيسة التي هي جماعة المؤمنين، المتحدين برباط المحبة، والمالكين ناصية المعرفة الحقيقية، أصبحت بعدئذ أساساً لإيماني. فقلت في نفسي «إن الحقيقة المقدسة لا يمكن أن يبلغ إليها رجل واحد. ولكن الوصول إلى قدس أقداسها مباح لجماعة المؤمنين المتحدين بالمحبة ولذلك وجب علينا قبل الحصول على الحقيقة ألا نسير كل في طريقه، بل أن نتحد بعضنا مع بعض، محتملين بعضنا بعضاً، ومتجنبين كل ما يعمل على شقاقنا وتباعدنا. فالحقيقة تعلن لنا ذاتها بالمحبة فإذا لم نطع أوامر الكنيسة فنحن نقتل المحبة نفسها، التي لا تظهر الحقيقة بدونها. وإذا قتلت المحبة خسرنا جميعاً الوسيلة الواحدة للحصول على معرفة الحق».

على أنني لم أستطع في ذلك الوقت أن أرى السفسطة التي في هذا النوع من التفكير المنطقي. لم أرَ إذّاك أن الاتحاد بواسطة المحبة قد ينشئ محبة عظمى. ولكنه لا يقدر أن يعطي الناس الحقيقة المقدسة المقررة في كلمات دستور إيمان نيقية، ولم أرَ إذّاك أن المحبة وحدها لا يمكن أن تقيد المؤمنين بالعمل بأي عقيدة من العقائد. إنني لم أر إذّاك الخطأ الذي في هذه العقيدة. وأنا شاكر عدم رؤيتي وفهمي في ذلك العهد: لأنني بسببها تمكنت من قبول جميع طقوس الكنيسة وممارستها، من غير أن أفهم أكثريتها. فقد طالما جاهدت في ذلك الحين أن أتجنب كل نوع من

البحث في مثل هذه المواضيع. وأبعدت جهدي عن الاعتراضات. ووقفت كل قوة فكري على تفسير عقائد الكنيسة بطريقة لا تثير ما كمن في أعماقي من الشكوك الكثيرة.

وفيما أنا على هذه الحال من الخضوع لأوامر الكنيسة كنت أخضع فكري أيضاً لجميع التقاليد المرعية الإجراء بين عامة الشعب الذي أعيش معه. فاتحدت نفسي مع أسلافي الذين أحببتهم. وهم أبي وأمي وجدي وجدتي. فقد عاشوا جميعهم كما عاش أسلافهم. وآمنوا. وكانوا سبباً لوجودي على الأرض. وكنت أشارك ملايين الشعب، الذي أحترمه وأحبه... بعبادته التي هي رجاؤه الوحيد في الحياة. قد فعلت كل هذا ولم أجد فيه شيئاً رديئاً. لأن الرديء في عقيدتي هو الاستسلام لشهوات الجسد. وعندما كنت أنهض من فراشي عند الصباح لحضور الصلاة كنت أشعر أنني أقوم بعمل صالح، واثقاً بأنه لم يكن لي من هذا العمل سوى كبح جماح كبريائي العقلية في سبيل الاتحاد مع أسلافي ومعاصريي لكفى به تعزية لي. وفي سبيل التفتيش عن معنى في حياتي لم أضن بتضحية رفاهية جسدى. بمثل هذا كنت أفكر أيضاً وأنا أعد نفسي لمناولة الأسرار المقدسة ومطالعة الكتب المقدسة، والصلاة، والتقشف، والمحافظة على الصيامات. ومع تفاهة هذه التضحيات التي كنت أقوم بها فقد فعلتها كلها من أجل غاية مقدسة. فكنت أهيئ نفسي بالإمساك والصلاة لمناولة جسد الرب، أصوم، وأقوم بفروض الصلاة في أوقاتها، سواء في بيتي أو في الكنيسة. وعندما كنت أصغي إلى الصلوات في الكنيسة كنت أرافق

القراء والمرنمين في كل كلمة، وأفسرها في ذهني بمعنى سام كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، أما الكلمات التي كانت تخلب لبّي في القداس بنوع خاص، فأنزلها أشرف مركز من الأهمية في قلبي، فهي كما يأتي:

«لنحب بعضنا بعضاً بعزم واحد». وأما الكلمات التي كانت تتبع هذه، وهي الاعتراف بأب وابن وروح قدس، فكنت أعرض عنها لأنني لم أستطع أن أفهمها.

الفصل الرابع عشر

كان الإيمان في ذلك العهد ضرورياً جداً لحياتي، حتى أنني أبعدت عن فكري كل أثر للشك أو الاعتراض على عقائد الكنيسة.

ولكن هذا التفسير للفروض والطقوس لم يكن ليعمر طويلاً في فكري. لأن خدمة القداس، مع أنها كانت تزداد وضوحاً في عيني في كل يوم بمبادئها الأساسية، ومع أنني كنت أبذل جهدي في تفسير مثل العبارة الآتية بصورة تبعد الثورة عن فكري: «بعد ذكرنا الكلّية القداسة الطاهرة الفائقة البركات المجيدة سيدتنا والدة الإله الدائمة البتولية مريم، لنودع ذواتنا وبعضنا بعضاً وكل حياتنا المسيح الإله». ومع أنني كنت أفسر كثرة صلاة الكنيسة للقيصر وعيلته بأنهم معرضون للتجربة أكثر من الجميع. ولذلك كانوا في حاجة إلى الصلاة أكثر من الجميع. ومع أنني كنت أفسر الصلاة: «من أجل إخضاع كل عدو ومحارب تحت أقدامهم. . .» بأنها صلاة تطلب الغلبة من اللّه على زعماء الشر. مع أنني فعلت كل ذلك للاحتفاظ بإيماني. ولكن هذه الصلوات وغيرها مثل تسبحة الشاروبيم. وجميع الأسرار المحيطة بالخبز والخمر. وعبادة

العذراء والقديسين. أو بعبارة أخرى ثلثي الخدمة التي تتلى في القداس. إما أنها كانت تظل أسراراً مغلقة لا تفسير لها عندي، أو أنها كانت تحملني على العودة إلى شكوكي القديمة، والاعتقاد بأنها خرافات باطلة. أما تسليمي بها فكان بحكم الضرورة يقودني إلى الكذب الذي يفصلني عن اللّه ويقضي على إيماني بأسره.

ولم يكن موقفي تجاه الأعياد الرسمية في الكنيسة بأفضل من موقفي تجاه الصلوات المار ذكرها. فالمحافظة على السبت بتكريس يوم واحد في الأسبوع للاتحاد مع اللّه لم تكن بعيدة عن إدراكي كان العيد الأعظم لتذكار القيامة التي لم أقدر أن أتصور حقيقتها ولم أستطع أن أفهمها. وقد خصص يوم الأحد من كل أسبوع بهذا العيد العظيم. وكان الاحتفال بخدمة سر الشكر يقام فيه، ولكن هذا السر لم يكن ليدنو من حدود تصوري. أما الأعياد الاثنا عشر الأخرى، بقطع النظر عن عيد الميلاد فقد كانت جميعها تذكاراً للعجائب التي كنت أبذل جهدي في إبعاد فكري عن البحث فيها لئلا أسقط في هاوية النكران. وأهم هذه العجائب الصعود، وحلول الروح القدس يوم الخميسين، والعماد، وشفاعة العذراء وغيرها.

في جميع هذه الأعياد كنت أشعر بأن الأهمية قد أعطيت لأقل الحوادث أهمية فأتمسك إما بالتفاسير التي تهدئ حدة ثورتي الفكرية بالأكثر، أو أنني أغمض عيني فلا أرى ما يحملني على الشك ويحرمني راحتي.

ولكن هذا الشعور كان يتزايد في أعماقي كلما حضرت في

حفلة عماد أو حفلة مناولة ما. وهما السران الكبيران المحترمان بالدرجة الأولى من جميع المؤمنين. فما كنت أراه في هاتين الحالتين لم يكن بعيداً عن الإدراك، أو فائقاً للعقل، بل كان ظاهراً واضحاً أمام عيني أنه وهم أكثر منه حقيقة. ولذلك كنت أجد نفسي بين هاويتين: إما الكذب أو الإنكار.

لن أنسى ما حييت الآلام التي شعرت بها في أعماق قلبي عندما تناولت القربان المقدس للمرة الأولى بعد أن تركته أعواماً عديدة. فالخدمة والاعتراف والصلاة، كل هذا فهمته وفرحت به لأنه فسح لي فرصة جميلة لإدراك معنى الحياة. وقد فسرت هذا العمل لنفسي أنه تذكار يعيد فكري إلى المسيح. ويعدني للتطهير من الخطيئة واقتبال تعاليم المسيح بكلية قلبي. وهذا التفسير سواء كان حقيقياً أو مصطنعاً فإنه لم يزعجني قط. لأنني كنت سعيداً جداً أن أواضع ذاتي، وأتقدم بقلب منكسر إلى كرسي الاعتراف، حيث يقتبل اعترافي كاهن بسيط، وديع، ويشهد على توبتي وطرح أحمال الخطيئة عن كاهل نفسي. نعم كنت أشعر بسعادة عظيمة وأنا أتحد بالروح مع آباء الكنيسة الودعاء الذين وضعوا صلواتها الساذجة السعادة التي شاركني فيها على مرّ الأجيال الذين آمنوا ويؤمنون من أعماق قلوبهم، ولذلك لم أجد في عملي شيئاً ينفر منه فكري.

ولكنني عندما تقدمت إلى «الباب الملوكي» وطلب إليّ الكاهن أن أكرر اعترافي. بأن ما أنا عازم أن آكله هو نفس جسد المسيح ودمه. شعرت بأن قلبي يتمزق من أحشائي. لأن هذا الطلب على

بساطته، كان عظيماً جداً على رجل مثلي لم يعرف الإيمان سبيله إلى قلبه.

إنني أقول الآن إن هذا الطلب كان هائلاً في نظري ولكنني لم أنظر إليه مثل هذه النظرة في ذلك الوقت. لأن الألم الذي أحدثه في قلبي كان داخلياً لا يعبّر عنه بالألفاظ. لم يكن لي في ذلك الوقت المركز الذي كان لي في صبوتي عندما كان كل ما في الحياة واضحاً في عيني. بل إنما جذبني إلى الإيمان اليأس الذي تولاني بعد فشلي عن الاهتداء إلى شيء حقيقي في الحياة بدون الإيمان. وإذ لم أقدر أن أعرض عن كنزي الجديد لذلك خضعت وسلمت. وقد ساعدني على هذا الخضوع شعور اهتديت إليه في نفسي. شعور بوجوب احتقار الذات والإماتة لأجل هذا احتقرت نفسي، واتضعت بفكري، وأكلت الجسد والدم، من غير أن أفكر في أقل ما يحملني على الهزء أو الشك. ولكن هذا كله لم ينقذني من تأثير الشعور الذي كان يؤلمني في أعماقي ولذلك لم أقدم على مثل هذا العمل مرة ثانية.

بيد أنني واظبت على المحافظة على طقوس الكنيسة، ولا أزال أؤمن من أعماق قلبي أن الطقوس التي حافظت عليها كانت تمثل الحقيقة تمثيلاً جميلاً. ولكنه حدث لي إذّاك ما هو الآن واضح في عيني ولكنه لم يكن واضحاً في حينه.

كنت مرة أصغي إلى محاضرة ألقاها راهب من المرسلين الأميين. فتكلم عن اللّه، والإيمان، والحياة، والخلاص، ففتح لي بكلامه باباً للولوج إلى معرفة حقيقة الإيمان.

وكنت أسير بين الناس دارساً آراءهم في الحياة والإيمان، فتزداد الحقيقة وضوحاً وظهوراً أمام فكري. مثل هذا حدث لي أيضاً عندما قرأت أخبار الشهداء، وسير القديسين، وخطبهم، ومواعظهم، ولذلك أحببت هذه الكتب كلّها واتخذتها رفيقة ملازمة لحياتي. وكان كل ما في هذه الكتب، ما عدا العجائب المدونة فيها، يعلن لي بصورة جلية حقيقية معنى الحياة. هنالك قرأت حياة مكاريوس العظيم، والأمير ايوساف (قصة بوذا) ومواعظ القديس يوحنا الذهبي الفم، وقصة المسافر الذي نزل إلى البئر، أو الراهب الذي وجد الذهب، وبطرس العشار. وفي هذه الكتب اطلعت على تاريخ الشهداء، الذين شهدوا بأجمعهم أن الحياة لا تنتهي بالموت، وفيها قرأت سير الرجال البسطاء الذين لم يعرفوا شيئاً عن عقائد الكنيسة.

ولكنني لم أشرع في الاختلاط مع المتعلمين من المؤمنين، أو في مطالعة كتبهم حتى عاودتني شكوكي، ورجع إليَّ تمردي واضطرابي فشعرت أنني كلما حادثتهم، أو قرأت مؤلفاتهم، يزداد بُعدي عن الحقيقة ودنوّي من هوة اليأس والشقاء.

الفصل الخامس عشر

كثيراً ما كنت أحسد الذين لا يقرأون ولا يكتبون من الرهبان الهائمين والمسافرين من مكان إلى آخر، وأغبطهم لأنهم لم يتعلموا. فإن عقائد الإيمان، التي كانت في نظري خرافة مضحكة لم يكن فيها أقل خطأ في نظرهم. ولذلك كانوا قادرين، بملء السهولة على قبولها بأجمعها، والإيمان بنفس الحقيقة التي كنت أنا أؤمن بها. أما أنا المتعلم الشقي، فكنت أعتقد أن الحقيقة التي أعبدها قد ربطت بخيوط رفيعة جداً من الخرافة والضلال، ولذلك لم أستطع أن أقبلها بتلك الصورة.

على هذه الحالة عشت ثلاث سنوات وعندما بدأت، كمن ارتد حديثاً من الكفر إلى الإيمان، أدنو من الحق شيئاً فشيئاً، وأقترب بقوة الغريزة الداخلية متلمساً طريقي إلى النور، لم تكن هذه العقبات لتثنيني عن عزمي. وكلما كنت أفشل عن إدراك شيء مما أراه كنت أقول في نفسي: «أنا خاطئ وشرير، والذنب في عدم إدراكي هو ذنبي دون سواي». ولكن نموّي في معرفة روح الحق الذي كنت أدرسه كان يقوّي بصيرتي لأرى أن هذه الروح هي أساس لا يقوم صرح الحياة بدونه وأن هذه العقبات الموضوعة

أمامها تحوّل الناس عن الحق، وتبالغ في فصل ما أدركه عما لا أدركه. ولكن ما لم أستطع أن أفهمه بعقلي كنت أفهمه بواسطة الكذب على نفسي.

وعلى رغم كل شكوكي وآلامي ما زلت متمسكاً بالأرثوذكسية ولكن آرائي أثارت قضايا جديدة، وحب البحث فيها والحكم بخطأها أو صوابها بصورة رسمية من الكنيسة. والقرار الذي أصدرته الكنيسة أخيراً في هذه القضايا، القرار الذي جاء مخالفاً للإيمان الذي كنت أعيش ربه، اضطرني أخيراً أن أعرض عن كل شركة معها.

وأول هذه القضايا التي أوجبت انفصالي هي علاقة الكنيسة الأرثوذكسية مع بقية الكنائس المسيحية: كالكنيسة الكاثوليكية، والكنائس المعروفة باسم المنشقين. فإن شغفي العظيم بالإيمان المسيحي في ذلك العهد قادني إلى التعرف بأساتذة كثيرين، من طوائف متعددة، كالكاثوليك والبروتستانت، والمؤمنين القدماء وشاربي الحليب، (الذين لا يؤمنون بالصيام)، وغيرهم، وقد وجدت بينهم كثيرين من المؤمنين المخلصين في إيمانهم، العائشين بموجب أسمى التعاليم الأدبية. فرغبت بكلّيتي في أن أكون أخاً لهؤلاء الرجال، ولكن ماذا كانت النتيجة؟

إن العقائد التي خيل إليّ أنها تعدني بوحدة جميع الناس بإيمان واحد، ومحبة واحدة، هذه العقائد، بشخص أفضل ممثليها وأعظمهم، أخبرتني أن جميع هؤلاء الناس يعيشون في الكذب والضلال، وأن مقدرتهم على الحياة إنما هي مستمدة من تجربة

الشيطان، وأننا نحن وحدنا قادرون دون جميع دون جميع الناس على معرفة الحق.

ومما رأيته في درسي أن أعضاء الكنيسة الأرثوذكسية في بلادي يعتبرون الذين لا يعترفون بإيمانهم هراطقة، كما أن الكاثوليك وغيرهم من الطوائف المسيحية ينظرون إلى عقيدتنا الأرثوذكسية نظرتهم إلى هراقطة، ورأيت أيضاً أن الأرثوذكسية تعتبر جميع الذين لا يحافظون على نفس الطقوس الخارجية، والفرائض المتعلقة بالإيمان كما تحافظ هي عليها، تعتبر جميع هؤلاء أعداء لها، وإن رغب بعض أبنائها في إخفاء هذه الحقيقة أحياناً. ولكن هذه الحقيقة ظاهرة: أولاً لأن ادّعائي أنك تعيش في الكذب، وأني أنا دونك أعيش في الحق، هو أعظم إهانة يستطيع الإنسان أن يوجهها إلى أخيه الإنسان، ثانياً، لأن الرجل الذي يحب أولاده وإخوته لا يستطيع أن يتعامى عن عداوة الذين يسعون إلى رد إخوته وأولاده من الحق إلى الكذب. وفوق هذا فإن هذه العداوة تزداد كلما تعمق الإنسان في درس العقائد الخصوصية التي يتمسك بها كل فريق. ولذلك وجدت نفسي، وأنا الرجل الذي يعتقد من صميم قلبه بأن الإيمان لا يوجد إلا في المحبة المتبادلة المتحدة، نعم وجدتني مضطراً على رغمي أن أرى أن عقائد الإيمان تعطل الغاية الوحيدة التي يجب أن تحييها وتنعشها.

وإنما تظهر هذه العداوة بأتم وضوح لمن يعيش مثلنا في بلاد تعددت مذاهبها، ويرى الاحتقار المعيب، وسوء المعاملة، والاضطهاد، الذي يوجهه الكاثوليك للبروتستانت، والأرثوذكس،

فيقابله الأرثوذكس بأفظع منه للكاثوليك والبروتستانت، ثم لا يبرح الأخيرون أن ينتقموا من الاثنين معاً بشر من فعلهم. ومثل هذا يتناول في الغالب في بقية المذاهب الأخرى.

كل هذه الحوادث تزعجنا لأول وهلة فلا نصدقها ولذلك نسأل ذواتنا ما يأتي:

«لا يمكن أن يكون الأمر شديداً لهذه الدرجة ومع هذا فإن هؤلاء الرجال لم يعرفوا بعد أنه إذا تناقضت قضيتان فإنه يستحيل أن يكون في جانب كل منهما الحق الذي يجب أن يبنى عليه الإيمان. ولا شك أن هنالك سبباً لهذا ومنه تتضح الحقيقة».

قد خطر لي مثل هذا في بداءة الأمر، ولذلك عمدت إلى مطالعة كل ما كتب في الموضوع وفاوضت جميع العلماء الذين استطعت مفاوضتهم، ولكن النتيجة الأخيرة التي وصلت إليها تعبّر عنها كلمات قليلة: «كل يغنّي على ليلاه».

فقد أخبرني نخبة رجال الدين، من جميع الطوائف والملل، أن ديانة كل منهم هي الحقيقة وديانة الآخرين ضلال مبين، وأن كل ما يقدرون أن يصنعوه مع غير التابعين لديانتهم ينحصر في الصلاة من أجل ارتدادهم من الضلال إلى الحق. ذهبت إلى خيرة العلماء، من الأساقفة، والكهنة، والمتقدمين في الرتب الدينية، والرهبان والنساك وسألتهم، ولكنني لم أجد بينهم من يستطيع أن يفسر لي الداعي لهذه العداوة. ولكن رجلاً واحداً من بين الجميع أوضح لي كل شيء فكان إيضاحه كافياً لحملي على عدم تقديم مثل هذا السؤال لأحد غيره.

إن السؤال الذي يواجه كل كافر، أو بالحري غير مؤمن، يرتد إلى الإيمان اليوم، (وفي عقيدتي إن جميع النشء الحديث داخل في هذا الصف)، هو: لماذا يوجد الحق في الكنيسة الأرثوذكسية مثلاً ولا يوجد في الكنيسة اللوثرية أو الكاثوليكية؟ لأن غير المؤمن يتعلم في مدرسته، ولا يستطيع إلا أن يعرف ما يجهله الفلاح الساذج، أن البروتستانت والكاثوليك يؤيدون إيمانهم ويؤكدون أنه هو الإيمان الحقيقي وحده.

البراهين التاريخية التي تصبغها كل طائفة بصبغتها الرسمية، لا يمكن أن تكون مرجعاً للحكم بين الطوائف. أفليس من الممكن والحالة هذه أن تنشأ معرفة سامية من اضمحلال هذه الفروق التي تضمحل شيئاً فشيئاً في أذهان المؤمنين المخلصين؟ أفلا نقدر أن نسير مع المؤمنين القدماء على نفس الطريق التي بدأنا سيرنا عليها معاً؟ فهم يثبتون لنا أن الطريقة التي نرسم بها الصليب على وجوهنا، ونرنم بها تسبحة هللويا، ونمشي بها حول المذبح ليست كطريقتهم. ونحن نقول لهم:

«أنتم تؤمنون بدستور الإيمان النيقاوي، وبالأسرار السبعة ونحن أيضاً نؤمن بها فاحتفظوا بهذا كله وما تبقى فلكم أن تتصرفوا به كما تشاؤون».

حينئذ نستطيع أن نتحد معهم على هذه الصورة: إننا معاً نقدم المهم من قضايا الإيمان على غير المهم. وأيضاً أقول: ألا نستطيع أن نقول للكاثوليك:

«أنتم مؤمنون بهذا، وبذاك، وبين ما تؤمنون به قضايا جوهرية

هامة. أما القضايا التي يقوم عليها الخلاف مثل انبثاق الروح القدس، وعصمة البابا فافعلوا بها ما تشاؤون».

ألا نستطيع أن نقول مثل هذا للبروتستانتي ونتحد معه في القضايا الجوهرية؟

وقد وافق على هذا نخبة من رجال الدين الذين فاوضتهم في الأمر، ولكنهم زادوا على موافقتهم قولهم: «إن مثل هذه الآراء تحمل الناس على القول بأن الإكليروس قد انفصلوا عن إيمان آبائهم وانضموا إلى الانشقاق في حين أن مركز الجالسين على الكراسي في الكنيسة يقضي عليهم بالمحافظة على نقاوة إيمان الكنيسة الأرثوذكسية الروسية كما تسلمته من أسلافنا القدماء».

حينئذ أدركت جلية الأمر. أنا أفتش عن الإيمان الذي هو عكاز الحياة وقوتها، ولكن هؤلاء الناس يفتشون عن خير الوسائل التي تمكنهم من القيام بواجبات بشرية (يبيّضون فيها وجوههم) أمام الشعب ويحفظون سلطانهم وسيادتهم على الناس. ومهما أكثروا من الكلام في إظهار شفقتهم على أغلاط إخوانهم، والصلاة من أجلهم أمام عرش اللّه لكي يردهم ويهديهم، فإن مصالح الناس لا تقوم إلا بالقوة، ولذلك كانت القوة، وهي الآن وستظل في المستقبل، آلة في يد الأسياد للبلوغ إلى ما يريدون.

إذا كان لنا طائفتان واعتقدت كل منهما أن الحق في جانبها، وأن إيمان الأخرى كاذب، فهما تعلمان كل واحدة عقائدها رجاء أن ترد إليها إخوتها الآخرين إلى الحق. وإذا تجاسر أحد أن يعلم عقائد كاذبة لأبناء الكنيسة غير المجرّبين في العالم، الثابتين في

معتقدهم القديم، فإن هذه الكنيسة تجد نفسها مضطرة إلى حرق الكتب المحتوية على العقائد الجديدة ونفي الرجل الذي أفسد أذهان أبنائها. ماذا يجب أن يعمل بالرجل الهرطوقي، الذي اندفع بغيرته على إيمانه إلى تعليم شبيبة الكنيسة الأخرى وحكمت عليه أنه مفسد لأذهان أبنائها؟

ما الذي يستحقه مثل هذا الرجل غير أن يقطع رأسه أو يودع في السجن؟ كان الناس في أيام ألكسيس ميخايلوفتش يحرقون بالنار، أو بعبارة أخرى كان قصاصهم صارماً فظيعاً بسبب إيمانهم المخالف لإيمان الملك. ومثل هؤلاء لا يزالون معرضين للاضطهاد والقصاص الصارم المعروف اليوم وهو النفي المؤبد. وعندما نظرت حواليَّ ورأيت كل ما كان يجري باسم الدين من الفظائع سرى الرعب في جميع مفاصلي، ولذلك انسحبت من الكنيسة.

والنقطة الثانية التي كانت تربط علاقات الكنيسة بقضايا الحياة هي الصلة التي بين الكنيسة والحرب والقتل. فقد كانت روسيا في هذا العهد منخرطة في حرب، وكان الروس، باسم المحبة المسيحية، يقتلون إخوتهم في الإنسانية. إن عدم التفكير في هذا العمل الفظيع مستحيل عليّ. ومثله عدم التصريح بأن القتل جريمة كبرى في نظر جميع الأديان. ولكن الناس على رغم هذه الحقيقة كانوا يصلّون في الكنائس من أجل نصر جيوشنا، وزعماء الكنيسة كانوا يقبلون كل جرائم القتل هذه كأنها نتائج لا بد منها للمحافظة على الإيمان. ولم يكن القتل في الحرب وحده مقبولاً في

الكنيسة، بل كان قتل المتمردين والثائرين من الشبان على التقاليد الرثة البالية محرماً في نظر أكثرية من عرفت من أعضاء الكنيسة ومعلميها ورهبانها ونساكها. ولذلك نظرت إلى كل ما يجري حواليَّ من الحوادث الفظيعة التي كان يقوم بها رجال يدّعون المسيحية فارتعدت في أعماق قلبي.

الفصل السادس عشر

من ذلك الحين فارقتني شكوكي، وثبت لدي أن ما رأيته في عقائد الإيمان الذي اعتنقته لم يكن كله حقيقياً. ولو كان ما رأيته في عهد إيماني سابقاً لهذا العهد، أي لو رأيت كل هذا قبل إيماني لما ترددت على الحكم بخطأه كله، ولكنني لا أستطيع أن أحكم حكماً مثل هذا اليوم.

كان الشعب بمجموعه يعرف الإيمان ولم يكن هذا بالأمر الذي يحتاج إلى برهان، لأنهم لولا إيمانهم لما استطاعوا أن يعيشوا وكانت معرفة الإيمان هذه مباحة لي أيضاً، لأنني كنت أعيش بها وأشعر بقوتها ولكن هذه المعرفة نفسها لم تخلُ من الخطأ. قد عرفت هذا بنفسي ولم أشكّ في صحته قط. وكل ما كان يحملني على الثورة في ما مضى صار في نظري اليوم يدنو مني أوفر إشراقاً وهدوءاً من قبل. ومع أنني لم أعد أجد من الخطأ في إيمان الشعب بمقدار ما في إيمان زعماء الكنيسة فقد رأيت أخيراً أن غير الحقيقي في إيمان الشعب ممتزج بالحقيقي.

فمن أين إذن هذا الحق وهذا الضلال في إيمان الشعب؟ إنهما

ولا شك قد وصلا للشعب مما نسمّيه بالكنيسة. لأن هذا الحق وهذا الضلال ممتزجان معاً في التقاليد المعروفة بالتقاليد والكتابات المقدسة.

ولذلك وجدتني مضطراً، شئت أم أبيت، أن أدرس هذه الكتابات والتقاليد درساً مستوفياً، مما كنت أتجنبه وأخافه قبلاً. فأقبلت بكلّيتي أدرس علم اللاهوت، الذي كنت طرحته عني قبل ذلك الوقت معتقداً بعدم فائدته، ومحتقراً الذي يضيع أيامه بدرسه. فقد اعتقدت في ما مضى أن علم اللاهوت سخافة لا معنى لها ولا فائدة من درسها، وكنت أعيش بين مظاهر الحياة الواضحة في عيني والممتلئة بالمعاني السامية في عقيدتي. ومع أنني الآن يجب أن أفرح بالإعراض عن مواضيع لا شأن للعقل الصحيح بدرسها ولكن هذا فوق طاقتي.

على هذا الأساس العقائدي، أو على الأقل بمساعدته، بنيت صرح تفسيري الوحيد والأخير لمعنى الحياة التي اهتديت إليها أخيراً. ومهما بدا الأمر غريباً على آرائي العقلية القديمة التي مارستها زمناً طويلاً فهو الرجاء الوحيد بالخلاص من الشقاء. ولكي يكون هذا مفهوماً يجب أن يفحص بتدقيق وتحفظ مع أنه لا يمكن أن تكون نتيجته شبيهة بنتائج البحث العلمي. لأن معرفتي للمواضيع الدينية والمباحث اللاهوتية تجعل ترقّب البلوغ إلى نتائج فيها شبيهة بنتائج المباحث العلمية أمراً مستحيلاً.

لأجل هذا لم أسع إلى تفسير كل شيء. لأنني عرفت أن تفسير الكل كان كبداية كل شيء مخفياً في قلب غير المحدود

ولكنني رغبت في بلوغ المحجة التي تبدأ عندها غير المدركات. ولكن رغبتي في أن يظل غير المدرك كما هو، لم تكن نتيجة الضعف في القوة الفكرية أو قصور في الإدراك، (لأن القوة الفكرية التي ساعدتني على عملي كانت صحيحة سليمة وبدونها لم أقدر أن أفهم شيئاً)، وإنما كانت رغبتي هذه نتيجة لمعرفتي للحدود التي ينتهي عندها فكري. أجل رغبت من صميم قلبي في أن أدرس الأمور بنفسي.

أصل إلى غير المدرك فأرى وأفهم أنه غير مدرك وأرجع عنه من تلقاء ذاتي، وليس لأن الرجوع عنه جزء من إيماني محتوم عليّ أن أعمل به من غير درس ولا بحث.

وما لا شك فيه أن العقائد كانت تحتوي على الكثير مما هو حق، ولكنها كانت أيضاً بدون أقل ريب تحتوي على الكثير مما هو غير حق. ولذلك رأيتني مضطراً أن أفتش عما هو حق، وعما هو غير حق، وأفصل أحدهما عن الآخر. وقد قمت بعملي بعد الدرس والتعب الكثير. أما ما وجدته من الحق وما وجدته من غير الحق وغير ذلك من النتائج التي أوصلني إليها درسي للدين والعلوم اللاهوتية والعقائدية فقد دوّنته في كتاب خاص ليكون جزءاً تابعاً لهذا الاعتراف فإذا وجده العالم ذا قيمة نافعة للناس فإنه قد يطبع يوماً من الأيام.

اعتراف

تولستوي

«ومهما تعددت أنواع الأجوبة التي يقدمها الإيمان للإنسان فإن كل واحد منها يجعل لحياة الإنسان المحدودة معنى غير محدود، معنى لا يزول ولا يفنى مهما اجتمع لمحاربته من جيوش الآلام والوحدة والموت. فبالإيمان إذن نستطيع أن نجد الحياة، وبه نفهم معانيها السامية. فما هو هذا الإيمان؟ ليس الإيمان كما فهمته بإعلان غير المنظورات فقط، ولا هو بالوحي الذي ينزل على قلوبنا فقط، لأن مثل هذا التحديد يظهر لنا شكلاً واحداً من أشكال الإيمان المتعددة، كلا ولا هو علاقة الإنسان بالله فقط، (لأن الإيمان يجب أن يتحدد أولاً ثم الله) ولا هو الإذعان لما أخبر به الإنسان فقط، كما يعتقد الكثير من الناس، وإنما الإيمان الحقيقي الكامل هو معرفة معاني الحياة الإنسانية معرفة حقاً تحمل الإنسان على محبة الحياة والمحافظة عليها. الإيمان هو وحده قوة الحياة.»

تولستوي





ISBN: 978-614-8020-06-3
9 786148 020063